نحو النظريَّة

ارتقاءً

تأليف

أ د. عقيل حسين عقيل

2020م

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: Dr-Aqeel.com

المحتويات

المقدّمةُ 3

تمهيد..... 6

الارتقاء The evolution 13

ارتقاء الخَلق الآدمي..... 16

ارتقاء الأخلاق..... 20

ارتقاء آدم 24

ارتقاء بني آدم..... 28

اعوجاج بني آدم..... 39

بنو آدم بين الارتقاء والدونيَّة..... 44

مرحلة الفطرة..... 50

مرحلة التقليد..... 62

مرحلة توليد الفكرة 75

مرحلة تطوّر الفِكَر..... 89

تطوّر الفِكَر جدلًا وحُجَّة..... 95

الفِكَر تُولِّد حلولًا..... 103

محطات تطوّر الفِكْر..... 108

الفِكْر الأسطوري..... 108

الفِكْر الفلسفي..... 113

حيرة الفِكْر 119

الفِكْر الفلسفي ارتقاء..... 124

تفسير الخيال أسطورة 126

مراحل الارتقاء قاعدة واستثناء 137
مرحلة رأس المال..... 141
المرحلة الشيوعيَّة 144
الفوضويَّة في كلّ المراحل..... 145
الارتقاء عملًا 153
المؤلّفات..... 201

المقدِّمةُ

أقدِّم هذا الجهد الفكري لأهل الفكر والقرّاء الذين يُميِّزون بين العلَّة والمعلول، والمحاججة والحجَّة؛ ليكون الودُّ بيننا متفاعلًا جدلًا وحوارًا ونقدًا بنَّاءً؛ بغاية الإثراء العلمي إضافةً، وترسيخًا، وبرهانًا يميِّزُ بين الشيء واللاشيء؛ كما يميّز بين المستحيل، والمعجز، والممكن.

ومع أنَّ أضلاع المؤلَّف: (نحو النظريَّة) قُدِّمت في ثلاثِ مؤلفات مستقلة، فإنَّ المثلث لا يكون إلَّا واحدًا؛ ولهذا ففهم النظريَّة يستوجب معرفة وحدتها: (فِكْرةً، وحُجَّةً، وبُرهانًا).

وهنا أقدِّمُ الضلع الثالث: (نحو النظريَّة ارتقاءً) في دائرة: (المتوقَّع وغير المتوقَّع) وهو ما يكون على المستوى البشري معرفةً، وعلمًا، وتعلُّمًا، وتفكيرًا، وخبرةً، وتجربةً؛ وذلك من خلال: الفعل، والعمل، والسُّلوك تطوّرًا.

كان منهجنا التحليلي في هذا الضلع الثالث من مثلث: (نحو النظريَّة) مشخِّصًا، ومستنتجًا، ومفسِّرًا لعمليَّة التطوُّر البشري وابعادها الإنسانيَّة والتاريخيَّة من خلال تتبع الحركة والسُّكون، والاختلاف والخلاف، والتكيّف والتوافق، والإفساد والإصلاح، والهدم والإعمار، والرّفعة والدُّونيَّة.

ومع أنَّه في دائرة الممكن لا استحالة، فإنَّ الصَّعب كثيرًا ما يعيق كثيرين؛ ولهذا فأكثرهم لا يفقهون سُبل النجاح، ولا سُبل النَّجاة، فيتنازعون، ويتصادمون، ويتقاتلون؛ فيتخلَّفون سُفليَّة.

وفي المقابل: أهل الحكمة، والعلم، والفضائل الخيِّرة، والقيم الحميدة يتقدَّمون ارتقاءً ورفعةً.

ولأنَّ الإنسان خُلِقَ في أحسن تقويم فليس له إلَّا أنْ يتحدَّى الصِّعاب، ويتقدَّم رفعةً تمكِّنه من ملامسة المعجز تفحُّصًا حتى يعترف بأنَّه الحقّ، ويقف عنده مسلِّمًا به حجّة تسنده بمزيدٍ من الحُجج والبيِّنات.

أ د. عقيل حسين عقيل

القاهرة

2020

تمهيد

تأسّست النظريَّة على قواعد ثلاث: خَلق كوني دونه المستحيل، ونشوء خَلق دونه الإعجاز، وارتقاء في دائرة الممكن دونه الاثنين معًا، ومع ذلك فالكلّ بين متحقّق ويتحقّق، والتساؤلات التي تأسّست عليها النظريَّة:

هل الكون خالقٌ، أم مخلوق؟

هل الكون نتاج الانفجار العظيم، أم إنَّه نتاج الانفتاق العظيم؟

هل الكون واحد، أم إنَّه متعدّد؟

هل النّشوء مستقل بذاته، أم إنَّه خَلق مترتّب على خَلقٍ؟

هل الخلق ارتقاء، أم الارتقاء لا يزيد عن كونه أملًا؟

هل الارتقاء في دائرة الممكن، أم إنَّه المتجاوز لها؟

هل الارتقاء أمل ماضٍ، أم إنَّه مأمولًا آتٍ؟

هل الإنسان خُلق على الارتقاء، أم إنَّه المتطوّر من أجله؟

فإنْ كان الكون خالقًا؛ فالخالق يخلق غيره، وإن كان المخلوق؛ فالمخلوق كما يسبقه الخالق، يسبقه الحيّز الذي يُظهره وجودًا، وإن كان كذلك؛ فالزّمان والمكان لا يعدّان جزءًا منه، بل هما السّابقين عليه.

ولأنَّه لا شيء قبل الخَلق إلّا الهيئة التي سيكون المخلوق عليها شكلًا أو صورةً؛ فالهيئة غير قابلة للمشاهدة ولا الملاحظة، وهي لا تدرك إلّا من

قِبل الخالق، وهذا الأمر يشير إلى ضرورة المقدرة المطلقة لخلق أيّ شيء، ولا شيء.

ومع أنَّ البعض يرى أنّ المخلوق خُلق من اللاشيء، ولكن بعض علماء الفيزياء أثبتوا أنَّ اللاشيء هو الآخر مخلوقٌ، أي: لو لم يكن اللاشيء مخلوقًا ما تحدثنا عنه، ولأنَّه أصبح بين إثبات ونفي؛ فهو لو لم يكن ما كان بينهما.

والتساؤل هنا:

إذا أصبح البحث في اللاشيء بين يدي البحاثة في علم الفلك والفيزياء؛ فهل يعدّ اللاشيء سابقًا على كلّ سابق، أم أنّ هناك سابقًا عليه؟ وهل السّابق عليه مخلوقٌ أم إنَّه الخالق؟ وهل الشيء كان نشوءًا من لا شيء، أم إنَّ النّشوء لا يكون إلّا من شيء؟

ولأنَّ النّشوء لا يكون إلّا في شيء؛ فهو في الوقت ذاته لا يكون إلّا منه.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء خُلق مسيّرًا في أحسن تقويم، فإنَّه اختيارًا انحدر في غفلة حتى أصبح أقل شأنًا عمّا خُلق عليه، وعندما لامس القاع سُفليّة أخلاقيَّة أخذته الصّحوة، والحيرة تملأ نفسه ندمًا؛ فاستغفر لذنبه؛ فتاب الله عليه، ولكن لم يتم ذلك إلّا بعد نفاذ الأمر، وهو: الهبوط به وبالأرض أرضًا، ومن هنا أصبحت تلك الحياة الخَلقيَّة، التي خُلق فيها الإنسان الأوّل (آدم) جنّة لم تفارق عقله، وظلّ يأملها؛ حتى جاءت الاستجابة حافظة لأمله في العودة إليها ارتقاء.

ولذا؛ فبعد أن كان آدم قد خُلق على الارتقاء خلقًا، أصبح الارتقاء بالنّسبة إليه مجرّد أملٍ. ومع ذلك فالأمل لا يتحقّق إلّا عملًا، فمن عمل من أجله بلغ مأموله، ومن لم يعمل فلا ارتقاء.

أمَّا بالنّسبة إلى النّشوء فهو نتاج خلق الشيء من الشيء ارتقاء، كما هو خلق الكون، ثمّ خلق الأرض فيه وجودًا، ثمّ خلق الأزواج منها، كما هو شأن آدم وزوجه، اللذين خُلقا من تراب الأرض جنّة عندما كانت الأرض مرتقة في السّماء.

ولذلك، كان الخَلق أوَّلًا، ثمّ جاء النّشوء مترتّبًا عليه، ومن بعده جاء خلق الأزواج من طين، ثمّ جاء خلق التزاوج من نطفة؛ فكان التكاثر على التسيير فيما لا شأن للإنسان به، وكان التخيير وفقًا للإرادة والرّغبة التي تمتدّ بين شهوة عاطفيَّة، وخُلقٍ وحُسن تدبّر وضبط ضمير.

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، خُلق على الارتقاء والأرض مرتقة في السّماء جنّة، ولكن بعلّة الشّهوة اختار أن يسلك سلوك المنحدرين دونيَّة؛ فأصبح النّعت سُفليّة يلاحقه منذ تلك السّاعة التي انحدر فيها؛ حيث لا منقذ له بعلل الاختيار انحدارًا.

ومع أنَّ الأمل بالنّسبة إلى بني آدم يرتبط بالمستقبل، فإنَّه بالنّسبة إلى آدم يرتبط بذلك الماضي الذي كانت فيه الأرض والسّماوات رتقًا؛ ولهذا فالأمل بالنّسبة إلى آدم هو العودة إلى تلك الجنّة التي فقدت في لحظة غفلة.

ومن هنا؛ فالأمل مع أنَّه من حيث المفهوم واحد، فإنَّه من حيث الدّلالة ليس كذلك؛ ولذا وجب التفكير في الزّمن وضبطه بين ماضٍ لن

يعود، وماضٍ يأمله آدم وبنوه الذين يعتقدون أنَّ الجنّة حقيقة على قيد الوجود؛ فتلك الجنّة التي خُلق فيها آدم وزوجه قبل أن تُفتق الأرض من السّماوات، ظلّت هناك في علوٍّ، أمَّا الأمل فظل منقطعًا على الأرض التي أهبط بها ومن عليها من المختلفين والمتخالفين دنيا.

ولأنَّ قواعد النَّظريَّة: (خلق ـ نشوء ـ ارتقاء) فهي ذات علاقة بأضلاع ثلاثة: (المستحيل ـ الإعجاز ـ الممكن)؛ ولهذا فحيثما كان الخلق كان المستحيل، وحيثما كان النّشوء كان الإعجاز، وحيثما يكون الارتقاء يكون الممكن.

ومع أنَّ الممكن ليس بمستحيلٍ، فإنَّ فيه من الصّعب ما فيه، وعلى الرَّغم من ذلك يتحقّق على أيدي البعض ارتقاء، ويتحقّق على أيدي البعض الآخر دونيَّة وسُفليّة؛ ولهذا فالممكن فيه من الموجب، وفيه من السالب ما يساويه، وفيه من المتوقَّع، وفيه من غير المتوقَّع ما يساويه.

ومع أنَّ الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع، فإنَّه ليس كلّ شيء ممكنًا؛ فهناك المستحيل الذي لا يخرقه إلّا معجز، وهناك المعجز الذي لا يخرقه إلّا ممكن، أي: إنَّ المستحيل لا يتحقّق إلّا مستحيلًا كما هو حال خلق الأكوان، وفتق الأرض منها، وهبوطها والأزواج على ظهرها إلى الحياة الدّنيا.

ولذلك؛ فالخَلق صُنع الخالق، ولا إمكانيَّة للتمكّن منه فعلًا أو عملًا، أمّا النّشوء؛ فهو المعجز الذي يخلق من الشيء أشياء، كما هو حال الأرض وخلق كثير من الأزواج منها، ثمّ النّشوء التزاوجي ومعجزة الخلق من النّطفة،

ثمّ الإظهار على علم الغيب، وهو المعجز الذي أصبح في دائرة الممكن نبأ ورسالات بين أيدي من اصطفاهم الخالق أنبياءً ورسُلًا عليهم الصّلاةُ والسّلامُ.

ومن هنا، أصبح علم الغيب في دائرة الممكن بين أيدي النّاس معجزة تبشّر بما يجب، وتنهى عمّا لا يجب، وترشد للحقّ، وتحرّض عليه.

فكان الارتقاء تطوّرًا من الجهل إلى العلم، ومن محاكاة الطّبيعة وحياة الفطرة والأساطير والخرافة، وحياة المحاكاة تقليدًا بلا حُجّة عن غير بيّنة، إلى حياة المعرفة الواعية، والفكر المستنير الذي تلاقح بالعلم المعجز من عند الله على أيدي الأنبياء والرّسُل عليهم الصّلاةُ والسّلامُ، فأنتج عصرًا جديدًا، فيه تُولّد الفكرة من الفكرة، وفيه أصبحت المحاجّة بين النّاس المختلفين والمتخالفين بيّنةً ودليلًا، وفيه العبر والمواعظ تؤخذ من التّاريخ، وفيه الحقوق بين النّاس تمارس، والواجبات تؤدّى، والمسؤوليات تُحمل عن إرادة. ومع ذلك؛ فالصّدام والخصام والاقتتال بين النّاس ظل في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع.

ولهذا؛ فالحياة البشريَّة لم تؤسّس على الاتفاق، بل تأسّست على الاختلاف، وسيظل النّاس على الاختلاف إلى النّهاية، إلّا من رحم ربّك: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[1] ومن ثمّ؛ فلا اتفاق بين النَّاس، بل الاتفاق لم يبق بينهم إلّا أملًا، ولا يسعى إليه إلّا الواعون الذين لا تأخذهم الغفلة كما

[1] هود: 118، 119.

أخذت أباهم (آدم) عليه السّلام في لحظة الإغواء والشهوة، عندما عصى ربّه، وأكل من تلك الشّجرة المنهي عنها.

ولذلك وجب التذكّر؛ حتى لا تتكرر الأخطاء، ووجب التدبّر دون غفلة عن العبر وما يوعظ، ووجب التفكّر فيما يمكّن من معرفة الكيفيَّة التي تمكّن من معرفة المستحيل مستحيلًا، ومعرفة المعجز معجزًا، ومعرفة الممكن ممكنًا.

ولذا، لا ينبغي أن يكون التفكّر منزويًا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما، ويمثلان له قاعدة تأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مسهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول.

ومن ثمّ، يعدّ التوقّف أو الانكفاء سِمة تشير إلى وجود خلخلة وبعثرة حقيقية في التفكير، ممّا يخلق ارتباكًا وفوضى معرفيَّة لا تكون نتائجهما محمودة؛ فالتفكّر ارتقاء لا يكون إلّا واقعًا ضمن دوائر متعدّدة تكون حاضنة له؛ فتمنحه كلّ ما من شأنه أن يحقّقه.

والتفكّر ارتقاء هو الذي يسير بالفكر الإنساني نحو إيجاد بدائل تكمن فيها معطيات النّهوض الذي يمنح النّاس حياة أفضل، لكن هذا الأمر لا يتحقّق للجميع؛ لكونه يرتبط بالخوف؛ فالمخاوف بسمتها الإيجابيَّة المفقودة يكون الرّكون إليها متفاوتًا، وهذا ناتج عن الإدراك غير الواعي بالحقيقة الموجودة؛ فالخوف لم يكن سلبيًّا على مدار الوجود الإنساني، بل كان حافزًا مهمّا في المعالجة والوقاية ودرء المخاطر في أوقات مختلفة؛ فهو يشير دائمًا إلى وجود خروقات طبيعيَّة وغير طبيعيَّة، تخرج عن نطاق المتعارف أو

الطبيعي الذي يجب أن يكون فهو بذلك منبّه من الدّرجة التي يكون استشعاره باعثًا على إيجاد كلّ ما من شأنه أن يدفع بالمتغيرات الحاصلة التي ظهرت منها المخاطر نحو حدود جديدة يكمن فيها الدرء المنشود، وهذا الحال حين يكون تحقّقه مستمرًا يمنح الإنسان وعيًا، ويمكِّنه من الارتقاء إلى ما يجب.

الارتقاء The evolution

الارتقاء قيمة تفضيليَّة خصّ الله بها الإنسان خَلقًا وخُلقًا فهو في خَلقه كان في أحسن تقويم، أمّا في خُلقه فينبغي أن يكون على الفضائل الخيّرة، والقيم الحميدة التي أمر بها الخالق، وفضّلها النَّاس: {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[2].

ومن هنا؛ فالفرق كبير بين تلك الزّواحف ومكبّة الأوجه، ومن يمشي سويًّا (مقوّمًا)؛ ذلك هو أمر الخالق، فلا يتبدّل، أمّا المتبدّل فهي الأخلاق التي هي بيد المخلوق.

ولذا؛ فلا إمكانيَّة لتلك المخلوقات أن تتطوّر وترتقي كما يظنّ بعض البحاث لتصبح غير زاحفة، أو غير مكبة الأوجه. وفي المقابل يمكن للإنسان الذي يمشي سويًّا أن ينحدر خُلقًا؛ فيضل ويظلم ويعتدي بغير حقّ، ومع ذلك فلن ينحدر خَلقًا.

وهذا ما حصل مع الإنسان الأوّل (آدم) الذي خُلق في أحسن تقويم، ولم يُخلق على الكمال، إنّه الإنسان بين التسيير والتخيير الذي: (يصيب ويخطئ)، وبين هذا وذاك يستغفر؛ فيتاب عليه، ومن ثمّ؛ فمخالفة أبينا آدم هي مخالفة تخييريَّة ذات علاقة بالإرادة والرّغبة والشّهوة، وهذه مكامن العلل والضّعف النّفسي التي تجرّ لما لا ينبغي (المخالفة) كما تجرّ لما ينبغي (الطّاعة والاتباع)؛

[2] الملك: 22.

ولذلك فحسن التقويم لا يتغيّر، أمّا حُسن الأخلاق في دائرة الممكن؛ فيتغيّر بين سُفليَّة وارتقاء.

ولأنَّ الأخلاق لا تخرج عن دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع رُقيًّا؛ فلا استغراب أن يحدث الخطأ، بل الاستغراب ألا يصحّح ولا يقوّم، كما صحّحه أبونا آدم، وقوّمه ساعة حدوثه، وساعة كشف علله: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[3]؛ ذلك لأنَّ الكلمات الصّائبة تصحّح الأخطاء الواقعة، وهذه تتعلّق بارتقاء الأخلاق، ولا تتعلق بالخَلق الذي لا يتبدّل.

ومن ثمّ؛ في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع لا بدّ وأن يقع الإنسان في الخطأ، أمّا الاستثناء في دائرة الممكن ألا يُصححه؛ ولهذا أخذ أبونا آدم بالقاعدة، وهي: متى ما وقع الخطأ، وجب التصحيح الذي يوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بالمعلومات الصّائبة.

وعليه:

فالارتقاء قيمة خُلِقَ الإنسان عليها من طين الجنّة عندما كانت الأرض مرتقة في السّماوات: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[4]؛ ولأنَّ الإنسان الأوّل خُلق من تراب الأرض المرتقة

---

[3] البقرة: 37.

[4] الأنبياء: 30.

في السّماء جنّة، كان خلقه في أحسن تقويم: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[5].

ولذا فأساس خلق الإنسان التقويم الحسن دلالة ومعنى وصورة، أمّا الاستثناء ألا يحافظ الإنسان على حُسن التقويم الذي خُلق عليه خلقا. وهذا ما حدث مع أبينا آدم عندما لم يأخذ بما أُمِرَ به وهو: ألا يأكلّ من تلك الشّجرة: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[6].

ومن هنا، جاء انحدار أبينا آدم عوضا عن الارتقاء الذي خُلق عليه خلقا: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}[7]؛ حيث الهبوط على الأرض التي فتقت من السّماوات؛ فأصبحت أرضا دنيا إذا ما قورنت بما بقي في علوٍّ (في السّماء)، ولكن آدم الذي خُلق على حُسن التقويم تدارك أمره فاستغفر ربّه؛ فتاب عليه: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ

---

[5] التين: 4.

[6] البقرة: 35، 36.

[7] التين: 5.

فَتَابَ عَلَيْهِ}[8]؛ ولهذا فقد استثني آدم من الوجود السُّفلي كونه تاب الله عليه بسبب استغفاره ورُقي إيمانه: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}[9].

وعليه:

فالإنسان الأوَّل (آدم) كونه قد خُلق في أحسن تقويم؛ فتقويمه الخَلقي لم يتغيّر، بل الذي تغيّر هو عدم أخذه بما يبقي الأخلاق ارتقاء؛ وذلك حينما أخذ بما يغوي، وهو: المنهي عنه: (ألا يأكل من تلك الشّجرة)، فحاد آدم عن الخُلق الذي هو بيده تخييرًا، ولكن لم يحدّ عن خَلقه المقوّم تسييرًا؛ إذ لا إمكانيَّة له في ذلك.

فالارتقاء خَلقًا سيظل باقيًا ومميّزًا لبني آدم، ولن يتطوّر أكثر من حُسن التقويم؛ وكذلك لن ينحدر عنه، فهو الخَلق الذي لا يتبدّل؛ كونه بيد الخالق، أمّا المتبدّل فهو الذي بيد المخلوق، وهي الأخلاق، ومن هنا، أكل آدم من تلك الشّجرة؛ حيث الرّغبة والإغواء المزيّف للحقيقة، وهو الذي شوّه الأخلاق انحرافًا.

ارتقاء الخَلق الآدمي:

ولأنَّ الخَلق بيد الخالق؛ فلا تخيير؛ ولأنَّه لا تخيير؛ فسيظل من خُلق مكبّ الوجه مكبًّا، وسيظل الزّاحف زاحفًا، وسيظل من يمشي

[8] البقرة: 37.

[9] التين: 6.

سويًّا على قوامه في أحسن تقويم، ومن ثمّ؛ فسيظل القرد قردًا، والإنسان إنسانًا، والسّمك سمكًا.

ونظرًا لأهميَّة الإنسان في الوجود الخلقي جاء خَلقه من عجلٍ: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ}[10] والعجل هو الشيء الذي نجهله صفة، وندركه شيئًا، فقوله: (من عجلٍ) أي: من شيء مميّز، ولم يقل: (على عجلٍ) أي: لم يقل (على تسرّعٍ)؛ فالخالق تعالى يخلق بالأمر لا بالجهد؛ ولهذا فخلقه لا تسرّع فيه؛ ولأنَّه لا تسرّع، قال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[11]. مع العلم أنَّ العَجل في كلام أهل حمير يعني: الطّين. وهذا المعنى ينسجم مع قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ}[12]، والسّلالة، هي: النّوعيّة الرّاقية من طين الجنّة حيثما كانت الأرض مرتقة مع السّماوات في علاها؛ وذلك لأنَّ خَلق الإنسان لم يكن على الأرض الدُّنيا، بل كان خَلقه على الأرض قبل أن تُفتق، ويُهبط بها دُنيا؛ ولهذا فالسّلالة تدلّ على أصول الخلق الآدمي من تراب الأرض المرتقة في السّماوات؛ حيث رُقي طين الجنّة.

ومن هنا؛ فسلالة خَلق الإنسان خاصّة به، والسّلالة تعني الجودة الرّاقية ذات الخاصيّة المتميّزة (جنسًا ونوعًا)؛ ولذا فلا عجل، ولا عبثيَّة في خَلق الإنسان الذي خُلق من طين الجنّة، والذي جودته

---

[10] الأنبياء: 37.

[11] التين: 4.

[12] المؤمنون: 12.

تصلصل ارتقاء: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}[13].

ولأنَّ الإنسان الأوّل (آدم) قد خُلق في أحسن تقويم؛ فهو من حمإ مسنون (من مادّة ذات جودة عالية)؛ إذ لا شائبة، ومن ثمّ؛ فلا طين يماثلها، فالطّين الذي خُلق منه الإنسان من صلصال (أرقى أنواع الطّين).

فخُلق الإنسان مُفضّلًا على جميع المخلوقات بما فيها الملائكة والجنّ: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[14].

ولأنَّ الإنسان هو المفضّل خَلقًا؛ فعلّمه الله نبأ ما لم يعلمه الملائكة: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[15].

---

[13] الحجر: 26.

[14] البقرة: 30.

[15] البقرة: 31 ـ 33.

ولأنَّ خلق آدم كان أكثر ارتقاء من غيره، سجد الملائكة إليه طاعة لأمر الله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا}[16]، أي: بأسباب الخَلق ارتقاء والنّبأ العظيم الذي تلقاه آدم من ربّه، سجد الملائكة له طاعة للنبأ الذي أنبأه الله به.

ولأنَّ الجنس الآدمي هو المفضّل ارتقاء، كان آدم نبيّا للملائكة والجنّ والإنس جميعا: (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ) فلمّا أنبائهم سجد الملائكة إِلَّا إِبْلِيسَ (أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ). وإلّا هل هناك من يشكّ في أنَّ الذي سجد الملائكة له، لم يكن على الارتقاء مفضَّلًا؟

أمَّا الخَلق الثاني: فهو الخلق المؤسّس على النّطفة (الماء الدّافق) {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ}[17]، وهذا الخلق هو الخَلق التزاوجي، الذي يختلف عن ذلك الخلق المصلصل؛ ممّا جعل السّلالة الثانية تختلف عن السّلالة الأولى؛ فالسّلالة الأولى: من طينٍ لازب، والسّلالة الثانية: من ماءٍ دافق مَهين: {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَّهِينٍ}[18].

ولأنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء؛ فينبغي أن يكون عليه قمّة وكأنّه كبد الكون: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}[19]، أي: خُلق

---

[16] البقرة: 34.

[17] النحل: 4.

[18] السجدة: 8.

[19] البلد: 4.

الإنسان على المحبّة؛ فينبغي أن يكون عليها كبدًا تتألم مع من يتألم، وتأمل الخير مع من يأمله، وتعمل في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع على تحقيقه، وكذلك ينبغي أن تسعد مع من يسعد، وتسعى استقامةً واعتدالًا ولا مظالم؛ فتجمع ما تفرّق من أجل إعادة قيمة الإنسان وحفظ كرامته، وما يؤدّي به إلى الرّفعة والارتقاء.

ارتقاء الأخلاق:

تعد الأخلاق نتاج القيم الحميدة، والفضائل الخيّرة، التي تستمدّ من الأديان والأعراف ارتقاء، بها يرتقي الإنسان قولًا وفعلًا وعملًا ومعرفةً وسلوكًا؛ من أجل علاقات اجتماعيَّة وإنسانيَّة مؤسّسة على نيل التقدير والاعتبار.

فالإنسان أساس خلقه الارتقاء (في أحسن تقويم) وغايته: الارتقاء خُلُقا إلى ما يجب، ومع أنَّ الأخلاق بيد النَّاس، فإنَّ بعضهم يخسرها بلا ثمن.

ولذلك؛ فالإنسان الأوّل قد خُلق من تراب الجنّة، وظل على خَلقه سلالة بشريَّة تمتدّ بين طينٍ لازب وماء دافق، ولا انحدار عن الخَلق المقوّم ولا تطوّر من بعده، فالإنسان هو الإنسان، ولكن الانحدار والتطوّر في دائرة الممكن هو بين متوقَّع وغير متوقَّع، فآدم وزوجه خُلقا في الجنّة من تراب الجنّة، ومع ذلك تعرّضا لإغواءٍ جعلهما على حالة من الانحدار عن القيم؛ حيث عدم التزامهما بالأمر النَّاهي عن الأكل من تلك الشجرة: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا

فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[20].

إذن: البقاء في الجنّة بقاء فضائل خيّرة وقيم حميدة، فمن لا يكون عليها لا يكون فيها، فحتى آدم عليه الصّلاة والسلام الذي خُلق في الجنّة خَلقا، أُهبط به على الأرض الهابطة إلى الحياة الدّنيا؛ وذلك بأسباب معصيته وميله لوسوسة من أغواه شهوة.

ولأنَّ الأخلاق يتمّ تشرّبها فضائل خيّرة؛ فبعد أن تلقّى آدم كلمات من ربّه ترشد إلى التي هي أقوم تاب الله عليه: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[21]، ومع ذلك صدر الحكم عليه والأرض ومن عليها من المخالفين أن يهبطوا من علوٍّ وارتقاء إلى سُفليَّة ودونيَّة: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا}[22].

ولأنَّ الهبوط كان نتاج الانفتاق العظيم؛ فهو خروج من الجنّة؛ حيث ظلّت الجنّة في العلو رُقيّا، وظلّ آدم ومن معه من المخالفين والعصاة (الإنس والجن) يحيون الحياة الدّنيا على الأرض الدّنيا، وفي المقابل بقي الملائكة الطّائعون في علو الجنّة ارتقاء، ولا يتنزّلون إلى الأرض الدّنيا إلّا تنزيلًا؛ لأداء مهمّة تربط أمرًا بين السّماء والأرض،

---

[20] البقرة: 36.

[21] البقرة: 37.

[22] البقرة: 38.

نحن نجهله: {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}[23].

ولأنَّها الأرض الدّنيا، وحياة المخالفين والمختلفين عليها مملوءة وسوسة وإغواء؛ إذن: فلا إمكانيَّة لأن تكون فيها الحياة آمنة مستقرّة لو لم تتنزّل الرّسالات والأنباء الواعظة، والنّاهية، والآمرة، والمحذّرة، والمنذرة، والمبشّرة بما هو أمل يشبع حاجة ويرضي رغبة؛ وذلك من أجل علاقات إنسانيَّة تنظّم أساليب الحياة ارتقاء، وتلفت المختلفين إلى ما يؤدّي إلى الاتعاظ، ويمكّنهم من إحداث النُّقلة وبلوغ القمّة.

فأنزلت الرّسالات تأمر وتنهى: {وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[24]، بمعني: يجب أن يكون الإنسان على الأخلاق الكريمة أينما كان، سواء كان آدم وزوجه في الجنَّة ارتقاء، أم أصبحا وبنوهم على الأرض انحدارًا، غير أنّ الحياة العليا بعد تلك الإغواءات قد جُرّدت من النقائص والحاجات التي أثّرت انحدارا على الإنسان الأوّل (آدم) ومن شاركه في المعصية أو حرّضه عليها، وأصبحت الحياة هناك ارتقاء كاملًا.

أمَّا بعد الهبوط؛ فَالفتن لم تنته، بل تكاثرت مع التزاوج والتكاثر، فالصّدامات والخصومات بين أبالسة وشياطين الإنس والجنّ استمرّت بلا انقطاع، ومع ذلك؛ فإنَّ بقاءها في الحياة الدّنيا

---

[23] القدر: 3 . 5.

[24] البقرة: 190.

هو بغاية الاتعاظ، وأخذ العبر من ذلك الإغواء الذي كان سببًا في هبوط المخالفين من الحياة الرّاقية إلى الحياة الهابطة.

ولأنَّ مخالفة آدم وزوجه لِمَا نهى الخالق عنه: (الأكل من تلك الشّجرة قد أخرجهما من الجنّة)؛ فظلّ هذا الدّرس شاهدًا على ما يمنع بني آدم من أن يدخلوا الجنّة، أي: بما أنّ تلك المخالفة قد أخرجت آدم وزوجه من الجنّة، إذن: فكيف لبني آدم دخولها؟

أقول:

قال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[25].

ولأنَّ أمر الهبوط كان أمرا حاسما لمخالفة جرت في الجنّة؛ إذن: ألا يعد أمرًا الهابطين أمرا حاسما في عدم الدّخول إليها؟ وهل من مخرج من هذه الأزمة، ومعظم الخَلق لهم من المخالفات ما لهم على الانحدار والدونيَّة؟

أقول:

قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}[26].

---

[25] الأنعام 160.

[26] الزمر 53.

ولأنَّ الدّين مصدر الفضائل والقيم؛ فلا إكراه فيه، وهذه عين الأخلاق، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر؛ ولذا وجب قول الحقّ وترك النَّاس أحرارًا يختارون ما يشاؤون إرادة، ولكن إن حدث الانحراف فوجب الإصلاح الذي يستوجب البدء مع المنحرفين من حيث هم: (جهلًا أو تعلّمًا)؛ وذلك من أجل بلوغ الإصلاح، أو بلوغ الحلّ ارتقاء.

ولأنَّ الأخلاق ارتقاء هي أساس المعاملة الحسنة فالأخذ بها لا شكّ أنَّه يجعل الإنسان على ، بدلا من أن يكون على الإكراه الذي لا يترك إلّا ألما: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[27]، أي: فلا داعي أن يضيق صدرك يا نبي الله وأنت تعلم أنّ مشيئة الخالق هي الفاعلة: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}[28]؛ لذلك كان محمّد داع إلى سبيل الحقّ بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا إكراه، وهذه عين الأخلاق ارتقاء، فالأخلاق تعد قيمة ارتقاء في ذاتها، وهي عندما تتجسّد في السّلوك يصبح سلوكها قمّة. إذن: فمن أراد أن يكون قمّة؛ فعليه بالأخلاق الحميدة ارتقاء.

ارتقاء آدم:

خَلق الله آدم في أحسن تقويم، من غير أب ولا أم (من تراب الجنَّة الصلصال)؛ إذ لا إنس من قبله؛ ولأنَّه كذلك جعله الله على

---

[27] يونس: 99.

[28] يونس: 99.

الارتقاء نبيًّا؛ فسجد له الملائكة طائعين، إلّا إبليس، ومع أنَّ آدم قد خُلق في الجنّة والأرض مرتقة في السّماوات، فإنَّه بمخالفة أمر الخالق أهبط به والأرض، ومن كان سببًا في إغوائه ومعصيته، وكذلك من قَبِلَ الإغواء معه معصية، وهنا تكمن العلّة التي دعت آدم ندما واستغفارا وتوبة، ولكنّ قرار الهبوط نافذ: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[29].

ومع أنَّ آدم تاب لربّه، فإنَّ توبته لم تَحُلْ بينه والهبوط على ظهر الأرض إلى الحياة الدُّنيا بعد أن كان على أرض النّعيم قمّة وارتقاء؛ فآدم عصى ربّه، ثمّ تاب؛ فتاب الله عليه، ثمّ اجتباه نبيًّا؛ لِيُنبئ من بُعث إليهم نبيًّا: {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}[30]، ومن هنا، يكمن أمل آدم في العودة إلى الجنَّة ارتقاء تلك الجنَّة التي فقدها ولم يعد يراها نعيمًا على الأرض المغبرّة التي أهبط بها أرضا، ولكن كيف يعود آدم إلى ذلك النّعيم الوافر؟

لا سبيل له إلّا الاستغفار عن معصيته، والتوبة إلى خالقه؛ ففعل ذلك عن قلب؛ فاجتباه ربّه نبيًّا، وعلّمه ما لم يكن يعلم؛ فأدرك آدم أنَّ فرصة العودة إلى الجنّة بعد توبته أصبحت ممكنة إن عَمِلَ وأتقن عمله رفعة.

---

[29] الأعراف: 24.

[30] طه: 122.

ولذلك؛ فَمِن بعد آدم أصبح العمل هو الممكن من إحداث النُّقلة وتحقيق الارتقاء رفعة؛ فتلك الجنّة التي خُلق فيها آدم لم يرها ابناه؛ فهما ولدا في الحياة الدّنيا (السُّفليَّة)، ولكن إنباء أبيهما أصبح بينهما حُجَّة وموعظة وعبرة؛ فبدأ العمل ارتقاء من أحدهما، وهو يأمل بلوغ ما أنبأه به أبيه الذي شهد ذلك النّعيم فأخذ بالنبأ وأمل الارتقاء إلى النّعيم نصب عينيه، وفي المقابل أخاه أخذته الشّهوة انحدارا وسُفليَّة؛ فقتل أخاه في الوقت الذي يبسط إليه أخوه يده محبّة: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[31].

وعليه:

فالارتقاء مؤسّس على الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة؛ ارتفاعًا عن كلِّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الانحدار والسُّفليَّة؛ وذلك من أجل بلوغ ما يُمكّن من إحداث النُّقلة الممكِّنة من بلوغ الجنَّة عيشًا رغدًا؛ ومن هنا وجب العمل المحقّق للعيش النّعيم الذي فيه الوفرة تغذي الرّوح، وتطمئن النّفس، وتخاطب العقل، وترضي القلب، وتشبع البدن، وتزيد الذّوق رفعة وارتقاء.

[31] المائدة: 28 . 30.

فآدم خُلق في الجنّة، وشهد على نعيمها، وفيها تمتّعَ، ثم حُرم منها وأهبط به والأرض دُنوّا، ولكنَّه لم ينس ذلك العيش الرّغِد، والوفرة التي لا تُحصى، والتنوّع المتّسع جمالًا، وبخاصّة بعد أن أصبح على الأرض التي لم تأخذ أيّ صفة من صفات الجنّة سوى الماء الذي يبقي على الحياة، ولا يُبقي على النّعيم؛ فأصبحت الحاجة تملأ نفس آدم وزوجه بعد أن حُرما من مشبعاتها المنقوصة في الحياة الدّنيا.

إنَّ الحياة الدُّنيا إذا ما قورنت بتلك الحياة العليا، فهي حياة الحاجات المنقوصة، وحياة الفتن والعداوات التي بدأت بين الأخوين (ابني آدم)، ثمّ اتّسعت وتكاثرت مع التكاثر؛ فأصبح الصّدام والاقتتال انحدارًا من بعض النَّاس، في مقابل ارتقاء بعضهم رفعة؛ فآدم الذي خسر ذلك الموقع الرّفيع، أصبح يأمل العودة إليه؛ ولذلك فقد سعى استغفارا وتوبة أهلته لأن يكون نبيا ينبئ بما عُلّم به من قِبل خالقه، ومن ثمّ؛ فلا مكان له بعد النبأ العظيم إلّا الجنّة، التي لا تبلغ ارتقاء إلّا بالعمل الصّالح.

ولذلك أصبح العمل ارتقاء أمل المصلحين السّاعين إلى الكسب الحلال بلا حدود؛ من أجل العيش الرّغد، وإيتاء الزّكاة، وإعطاء الصّدقة: (ضريبة وتبرّعا)؛ فالسّاعون ارتقاء مهما بلغوا من المراتب والقمم؛ فهم يأملون مراتب عظيمة من بعدها قمّة أعظم؛ ولهذا وجب العمل إتقانًا حتى الارتقاء بالأرض الدّنيا، ورتقها في السّماء جنّة.

ومن أجل ذلك وجب العمل الممكِّن من بلوغ الأحسن والأرقى، شريطة ألا يكون التحسّن على حساب إشباع حاجات الغير، بل ينبغي أن يكون العمل تُرسًا من تروس عجلة الحياة العامّة؛ ذلك لأنَّ الارتقاء الممكّن من السّعادة لا يمكن أن يتحقّق والغير يتألم؛ ولذلك فالعمل وفقا لأهداف الحياة ينبغي أن يكون من ورائه غرض خاصّ، وهو: إحداث النُّقلة، وغرض عام، وهو: تحفيز الآخرين ودفعهم تجاهها، وإلّا فألم الغير لن يفسح الطريق أمام من يسعى إلى الارتقاء غاية.

ارتقاء بني آدم:

بنو آدم في دائرة الممكن هم بين متوقَّع وغير متوقَّع، أي: إنّهم بين متوقَّع الارتقاء ومتوقَّع الدونيَّة، ومن جهة أخرى هم يتبدّلون؛ إذ لا ثوابت؛ فمنهم من يبقى على الارتقاء، ومنهم من يتخلّى عنه، ومنهم من نراه في دونيَّة، ولكن من بعدها يبلغ القمم ارتقاء؛ ولذلك ينبغي العمل مع بني آدم من حيث هم، من أجل الارتقاء بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه قمّة.

ولأجل ذلك: ينبغي أن نميّز بين تحديد الأهداف وإنجازها، وتحديد الأغراض وتحقيقها، وتحديد الغايات وبلوغها؛ فالأهداف تحدّد لتنجز أوَّلًا بأوَّل، وهي في دائرة الممكن المتوقَّع لا تنتهي إلّا بانتهاء من يعمل عليها، ولهذا؛ فلا توقّف بعد إنجاز الأهداف، بل

ينبغي تحديد أهداف أهم من التي أنجزت، ثم من بعدها أهداف أعظم، وهذه من سُبل تحقيق الارتقاء غاية.

ولأنَّها أهداف تحقيق الارتقاء؛ فلا تكون ذات أهميَّة إلّا ومن ورائها أغراض، ثمّ من وراء الأغراض غايات عظيمة؛ ولهذا لا ينبغي أن تكون الأهداف غاية في ذاتها، بل يجب أن تكون الغايات من ورائها رفعة.

إنَّ قاعدة تحديد الأهداف مؤسّسة على الإنجاز، وإلّا لا داعي لتحديدها، أي: كلّما أنجز بنو آدم هدفا ينبغي أن يكون من ورائه هدف أهم، ثمّ من ورائه هدف أكثر أهمية، ووراء كلّ هدف غرض من ورائه غرض أعظم، وهكذا هي سُبل تحقيق الارتقاء غاية ومن ورائها غاية.

ولذلك في دائرة الممكن غير المتوقَّع، بعض النَّاس يحدّد أهدفه، ولكنَّه لا يعمل على إنجازها وكأنَّ تحديدها هو الغاية، وكذلك هناك من يحدّد أهدافه ويعمل على إنجازها دون أن تكون له أهداف من بعدها، وهنا يكمن الفشل أمام تطوّر الحاجات وتنوّع مشبعاتها؛ ولهذا فالأهداف ارتقاء: ينبغي أن يكون من ورائها غرض تكمن من ورائه غاية.

وكذلك في دائرة الممكن غير المتوقَّع هناك من يحدّد أهدافه بمعزل عن قدراته وإمكاناته المتاحة، ممّا يجعل الأهداف لا تزيد عن كونها قد كتبت على الورق، أو خبّأت في الصّدور، وهنا يقف حمار

الشّيخ عند العقبة؛ حيث لا شيء ينجز، سوى الحديث عن تلك الأهداف المقبورة.

ومن ثمّ؛ فمن يريد أن يبلغ الغايات العظيمة؛ فعليه أن يجعل أهدافه درجات سلّم (درجة أعلى من درجة) أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلّم، أهّب قدمه الأخرى إلى الدّرجة التي هي أعلى من التي وضع عليها قدمه الأولى؛ ولذا فلا ينبغي أن يغفل أحد من بني آدم ويضع قدميه معًا على درجة من درجات السّلم حتى لا تنكسر بأيّة علّة ويجد نفسه قد وقع على الأرض الدّنيا حطامًا؛ فالقدمان لا يوضعان بسلام وصاحبهما مطمئن إلّا على قمّة استراحة السّلم الذي يرتق الأرض مع السّماء ارتقاء.

ومن ثمّ، ينبغي على بني آدم عند رسم السياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضًا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والكرامة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصيَّة قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميَّة رفعة، وتحقّق لهم العيش السعيد قيمة، ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا؛ فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وشُبهة، وهنا يكمن الانحدار علّة.

ولذا؛ فكلّما أُنجز هدف، من ورائه غرض، من ورائه غاية، يتمّ اكتشاف أهداف من ورائها أغراض تحقّق غايات أكثر أهميَّة؛ فالحياة الدّنيا لا غاية من ورائها إلّا رتق الأرض بالسّماء ارتقاء، أي:

كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلم ارتقاء وتحقّقت له الرّغبة المرضية قيمة وفضيلة، يجدّ نفسه أكثر رغبة تجاه الصّعود إلى الطوابق العليا؛ حتى يرى بأمّ عينيه أنّ الأرض والسّماء قد رُتقتا جنّة.

فعلى بني آدم أن يعرفوا أنَّهم سيبلغون السّماء ارتقاء كلّما عملوا وفقًا لأهداف تنجز، وأغراض تتحقّق، وغايات يتمّ بلوغها، ولكن إن أحسّ بعضهم بشيء من التّعب، فعليهم بوضع أيديهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاء، وعليهم أن يتأكدوا أنّهم في حاجة لوضع أيدهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاء.

ولأجل بلوغ الارتقاء قمّة؛ فلا بدّ من سيادة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة بين بني آدم، تقبّلًا، واحترامًا، وتقديرًا، واعتبارًا، واستيعابًا، وتفهّمًا، وتدبّرًا، مع مراعاة البدء مع النَّاس من حيث هم؛ من أجل ما يجب أن يكونوا عليه ارتقاء.

فالارتقاء معمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة)، وهدف فوق هدف، وغرض فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، ولكن في المقابل هناك من يهدم المعمار رأسًا على عقب، وهناك من يهدّه لبنة بعد لبنة؛ فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيّا، والهادمين له انحدارًا، ما لم يضع الجميع نصب أعينهم أهدافا قابلة للإنجاز، من ورائها أغراض قابلة للتحقّق، وغايات يجب أن تُبلغ ارتقاء. ومع ذلك فهذا الأمر لا يزيد عن كونه أملا، وسيظل

أملًا؛ لأنَّ الخالق خلقنا على الاختلاف وسنظل عليه مختلفين: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[32].

إنَّ الاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين؛ ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي أن تحدّد الأهداف وفقا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصامًا، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلًا وارتقاءً.

فمن أجل الارتقاء قمّة، ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن؛ فالاقتتال والفتن ضياع فرصة، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين؛ فيجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظروف ارتقاء، ومن يضيعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم؛ فالنّدم عندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة؛ فالنّدم يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما ضعف الإنسان انحدر غفلة،

[32] هود: 118، 119.

ومتى ما قوي ارتقاء تذكّر؛ فاتعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر، عمل وأنتج، ومتى ما فكّر، حدّد أهدافا من ورائها أغراض، والغاية من ورائها قمّة.

ولذلك، وجب التدبّر بما يبعد بني آدم عن الجلوس على رصيف المتسوّلين؛ فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بركب من يحدِّدون أهدافهم وأغراضهم وغاياتهم بأمل تحقيق الرّفعة والارتقاء قمّة.

وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يمكّن المتسوّلين من المشاركة في العمل المنتج، الذي يحفّزهم على تنمية قدراتهم، وتوجيهها وفقا لما يحقّق لهم الارتقاء نهضة ورفعة؛ فيخلّصهم من التسوّل إرادةً وعملًا، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة؛ فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، والأغراض الرّفيعة، والغايات العظيمة.

فرجالات الدّولة ارتقاء هم من لا تأخذهم العصبيّة؛ ذلك لأنَّ العصبيّة مقبرة الذين لا يعلمون، فرجالات الدّولة ارتقاء كلّما حكموا عدلوا، وكلّما قالوا صدقوا، وكلّما عاهدوا أوفوا، وكلّما كبروا تواضعوا، أمَّا المدّعون لذلك فهم مع كلّ هبَّة ريح يميلون، وهنا تكمن علّتهم وعلّة الدّولة.

فالدّولة ارتقاء تستهدف رجالات بعينهم وفقًا لما هم عليه من مكانة، ومع ذلك تخضعهم للتقييم قبل أن يتمّ اختيارهم إلى مناصب إداراتها، وكذلك هم بعد الاختيار يقوّمون كلّما حادوا عن القيم والفضائل الخيّرة، بهدف إعادتهم إليها ارتقاء.

ومن ثمّ؛ فمن يرى نفسه رجل دولة؛ فعليه باختبار نفسه وتقويمها قبل أن يُختبر ويقوّم من قِبل الغير.

فبنو آدم سواء أكانوا رجالات دولة، أم مواطنين كرام يدركون أنَّ السّبيل إلى النّجاح هو الارتقاء عن كلّ شيء يؤلم، أو يؤزّم العلاقات، أو يؤدّي إلى تفكّك اللحمة الاجتماعيَّة، أو الوطنيَّة، أو الإنسانيَّة، أو يمسّ معتقدًا دينيًّا.

ولكن من بني آدم من يجهل ويغفل؛ فيقع في فخّ مصيدة الغاوين والمزيّنين والمضللين، التي تزداد ضيقًا على رقاب من يقع في فخّها كلّما حاول أن يرى نفسه غير مختنقٍ.

ومع أنَّ للألم أوجاعا، وللتأزّم أوجاعًا، فإنَّ أكثر الأوجاع بين بني آدم ما يتركه الغدر والخيانة من ألم، فآلام الغدر والخيانة لا تموت، حتّى وإن سامحك من أجرمت في حقّه؛ ولذلك وجب أخذ الحيطة والحذر؛ حتى لا يحدث الوقوع في فخّ المصيدة مرّتين.

أمَّا الحقد بين بني آدم فهو مثل حطب نار جهنّم يحترق قبل أن يحرق غيره، أي: إنَّ نار الحقد تحرق أوّل ما تحرق حطبها (الحاقدين)؛ ولذلك فالحقد يُلهي الحاقد من بني آدم في نفسه،

والحاقد في حقيقة أمره في حاجة لمن يطفئ عنه النّار التي بها نفسه تحترق؛ ومن ثمّ فمن يعتقد أنَّه إذا تمكّن من عضّ يد أحد وعضّها، فلا شكّ أنَّ عضَّ اليد يفكر الآخر في أنيابه إن لم تكن له مخالب.

ولذا فإنَّ الجهل والحقد والظّلم والعدوان والكيد والمكر عندما تشتعل نيرانها بين بني آدم؛ فلا سبيل لهم إلّا التخلّف، والانحدار، والسُّفليَّة المؤلمة، وفي المقابل الشّعوب ترتقي علما ومعرفة وتسامحا وخبرة وتجربة؛ فتغزوا الأرض سلامًا، والسّماء بحثًا وارتقاءً.

فبنو آدم الذين بلا أمل لا يعدّون إلّا أمواتًا وهم على قيد الحياة، والذين يأملون الارتقاء ولا يعملون من أجله، فسيبقون على أملهم وكأنَّهم بلا أمل، أمَّا بعضهم الذي يأمل ويعمل ويفعل، فلا شكّ أنَّه سيُسهم في إحداث النُّقلة ارتقاء، وفي المقابل هناك من يهدم وهو لا يعتقد أنّ الهدم سيقع على رأسه وكأنّه بلا رأس.

وهكذا، هناك من يصدّق كلّ ما يقال، ثمّ يحمّسه بين بني آدم مثلما يحمّس القمح في الحمّاس؛ ولذلك لا ينبغي أن يكون بنو آدم سماعيّين فيصدّقون كلّ ما يقال، بل عليهم بالتذكّر اتعاظا، وعليهم بالتدبّر تحليلًا وتفسيرًا وتخطيطًا وسلوكًا وعملًا، وعليهم بالتّفكّر من أجل ما يجب؛ حتى يتمكّنوا من الارتقاء من خلال ما يمارسونه من حقوق عن رغبة، وما يؤدونه من واجبات عن إرادة، وما يحملونه من مسؤوليَّات وهم متحمّلون كلّ ما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

وعليه:

فارتقاء بني آدم مؤسّس على ما أخبرهم وأنبأهم به أبوهم آدم، ومن بُعث من بعده من الأنبياء والرّسل صلوات الله وسلامه عليهم؛ ولهذا فهم يأملون العيش في ذلك النّعيم المنبئ عنه؛ ولأجل ذلك فمن آمن منهم يسعى ويعمل من أجله ارتقاء، ومن لم يؤمن ستظل فُرصه على قائمة الانتظار ما بقي حيّا.

فبنو آدم من أجل تلك الجنّة التي وُصفت بما وُصفت به من عظمة، يصلّون لله من أجل بلوغها، ويصومون ويزكّون ويتصدّقون ويحجّون ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجل بلوغها؛ ولذلك هم يصلحون أحوالهم ويعفون ويصفحون من أجل بلوغها، ويتعلّمون ويعملون من أجل بلوغها، ومع ذلك فهم في حاجة للمزيد المعرفي الممكِّن من زيادة الارتقاء قمّة، وخير وسيلة لذلك، المزيد من البحث العلمي والمعرفي في الكون المتسارع اتساعًا وتمدّدًا.

وهنا، أقول لبعض علماء الفيزياء وعلماء الفلك: ما قد تمّ اكتشافه عن الكون من قبلكم قد أخبرنا به القرآن الكريم الذي أنزل قبل أن يفكّر أحد في غزو الفضاء، وقبل أن يتمّ اكتشاف أسرار من الكون؛ ولذا فَلِمَ لا تتوقّفون عند الكتاب؛ لتتبيّنوا قوله؛ لعلكم ترشدون إلى المزيد من الاكتشاف العلمي، وإلى ما يُمكّن من الارتقاء من أجل بني آدم (النَّاس جميعًا). فإن كنتم أهل موضوعيَّة؛ فلا يليق أن تتجاهلوا كتابًا يملأه العلم والبيّنة؛ فأنا لا أقول لكم: ادخلوا

الإسلام، ولكن أقول: أنتم أهل علم، وها هو مصدر ثمين يملؤه العلم آية وراء آية.

ولهذا؛ فلا ارتقاء لبني آدم إلّا والبحث العلمي مصدره، والفضائل الخيّرة مصدره، والقيم الحميدة مصدره، ومن يغفل عن ذلك ليس له من خيار إلّا الانحدار على بلاطة الدّنيا.

ومن ثمَّ؛ فالارتقاء بالنّسبة إلى بني آدم هو: أملٌ قابلٌ لأن يتحقّق ويتمّ بلوغه، ولكنّ مفهوم الارتقاء غاية لا يتّضح إلّا بمقارنة بين العُليا والدُّنيا؛ فالعُليا هي السّماء وما فيها من نعيم الجنّة وبقاء الحياة، أمَّا الدُّنيا فهي الأرض، وما عليها من مخلوقات وزوال الحياة. وبين هذا وذاك، وجد الإنسان نفسه بين التّخيير تارة، والتّسيير تارة أخرى؛ فالتّخيير (تؤمن أو لا تؤمن، تعمل صالحًا أو تعمل طالحًا، تَصدُق أو تكذب أو تنافق أو تدّعي ما تشاء....)، أمَّا التّسيير فلا خيار لأحدٍ فيه (حياة أو موت، شروق أو غروب، برق ومطر ورعد وصواعق وزلازل وبراكين وتمدّد كوني متسارع، ومفاجآت عظيمة....).

ولهذا؛ فالارتقاء قمّة يمكّن بني آدم من العيش الرّغد في الحياة الدّنيا (الزائلة) ويمكنّهم من العيش السّعيد في الحياة العليا (الباقية)؛ فبنو آدم لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يربطون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة؛ ومن هنا فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاء.

فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه؛ فإن فارقه الأمل فلا معنى للحياة؛ فالله خلق أبانا آدم في النّعيم؛ ليعيش وبنوه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزائلة (الحياة المنقوصة)؛ حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك وجب العمل الممكّن من بلوغ الحلّ رفعة وارتقاء.

ولسائل أن يسأل:

أيّ حلّ تعني؟

أقول: حلّ أزمة الحياة الدّنيا، التي تتطلّب العمل بهدف النّهوض، وغرض الارتقاء، وغاية بلوغ القمّة (الحياة الباقية)؛ حيث تُرتق الأرض في السّماء بعد أن فُتقت منها.

فيجب الإقدام على العمل المشبع للحاجات المتطوّرة بلا حدود؛ ذلك لأنَّ الحدود عوائق أمام التقدّم تجاه بلوغ الأفضل والأعظم؛ ولهذا فلا ينبغي أن يرتضي بنو آدم بالفقر؛ فالفقر مرض ينبغي القضاء عليه بالعمل المنتج؛ فلو عمل بنو آدم جميعهم، لما وجد الفقر مكانًا له على الأرض، ولأنّهم لا يعملون جميعا؛ فسيظلون فقراء مهما استغنى منهم من استغنى.

ولذلك الغنى رحمة، والفقر أزمة ومواجع؛ ولأنَّهما كذلك وجب على الأغنياء العمل إلى جانب ما يعملون ويجنون من

مكاسب؛ من أجل إزالة الألم عن الفقراء، وتحويلهم إلى ميادين العمل المنتج ارتقاء.

فالغنى ارتقاء حقّ، لا يكون إلّا نتاج العمل المرضي، أمَّا الفقر فليس بحقّ، بل الفقر أوجدته أسباب وعلل ينبغي أن تزال، أمَّا العجزة والقصّر فحقوق عيشهم المرضي على كواهل العاملين من ذويهم، ولكن إن كان ذووهم يعيشون اتكالا على الغير، فالعيب لا شكّ أنَّه سيلاحقهم ومن ورائهم سيلاحق المسؤولين في الدّولة.

إذن: الارتقاء لا يمكن أن يكون على حساب الغير، بل يكون بجهودهم المشتركة؛ حيث لا إقصاء ولا تغييب لأحد عن ممارسة حقوقه، أو أداء واجباته، أو حمْل مسؤوليَّاته. وفي المقابل يحدث الانحدار والنّزول سُفليَّة لمن يتخلّى عمّا يجب التمسّك به حقًّا وواجبًا ومسؤوليَّة.

ولذلك ينبغي أن يعمل الجميع بهدف الاستغناء والحياة الرّاقية، وكلّما بلغ الجميع مستوى من العيش الرّفيع الرّغد يجب أن يفكّروا فيما هو أرفع وأرغد منه؛ حتى تُرتق الأرض والسّماء بالعمل ارتقاء.

اعوجاج بني آدم:

بنو آدم على الرَّغم من خَلقهم في أحسن تقويم، وعلى الرّغم من اصطفاء واجتباء الأنبياء والرُّسُل منهم وإليهم، فإنَّهم لم يُخلقوا على الكمال، وهنا تكمن العلّة، التي تجيز لهم ارتكاب المخالفات

والمعاصي وارتكاب الخطايا التي منها ما يُغتفر، ومنها ما لا يُغتفر، ومع ذلك فكلّ ما يقدمون عليه باختياراتهم المسؤولة وغير المسؤولة؛ فإن كانت مسؤولة حفّزت ودفعت تجاه كلّ ما يحققّ لهم الارتقاء رحمة، وإن كانت غير مسؤولة حفّزت ودفعت تجاه ما يؤدّي بهم إلى الانحدار والدونيَّة، ومن هنا، يلد الخلاف خلافا، فتشتدّ الخصومات والصّدامات بين من يرى المسؤوليَّة ارتقاء، ومن لا يرها إلّا انحدارًا.

ولذلك، عندما تغيّب المسؤوليَّة، يحضر الفساد والسّلب والنّهب والغدر والاقتتال المؤدّي إلى الدونيَّة كما هو حال ابن آدم عندما قتل أخاه ظلما، إنّه أوّل انحدار بعد تلك المعصية التي اقترفها أبوه عندما أكل من تلك الشّجرة المنهي عنها، وهي أوّل جريمة قتل تحدت على الأرض الدّنيا.

ولأنَّ بني آدم لم يُخلقوا على الكمال؛ فكان الضّعف فيهم رغبة وشهوة؛ حيث اختياراتهم بأيديهم؛ ولذلك فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[33]، أي: إنَّ الضّعف والوهن هما مكمن العلّة الآدمية؛ فمن يقوى من بني آدم ينهض ويرتقي، ومن يضعف يستكين ويعوجّ انحرافًا؛ ولهذا بعث الله الأنبياء والرُّسُل الكرام، يرشدون إلى ما يؤدّي إلى القوّة والارتقاء رحمة؛ فكان نوحٌ آية، وبين يديه آيات النّهوض ببني آدم إلى ما يجب أن

[33] النساء 28.

يكونوا عليه قمّة، ولكن قومه في معظمهم كان الضّعف فيهم آية؛ فكذّبوه وكفروا به، وبما جاءهم به هداية.

فتلك الفترة التي بُعث إليها آدم نبيًّا قد انتهت، والخلاف على أشدّه بين بنيه الأوائل؛ فبعث الله نوحا لهدايتهم، ولكن شدّة الخلاف كانت عائقا أمام هداية كثيرين منهم؛ فكان الطّوفان حلًّا فاصلًا بين من اتبع الحقّ هداية، ومن ضلّ عنه ضعفًا وانحرافًا: {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}[34]. فالقليل هم الأقوياء الذين ارتقوا إلى ما يُمكّن من النّجاة، أمّا أولئك الضّعفاء فغرقوا ضعفا ووهنا.

وظلّت الحياة بعد الطّوفان العظيم مَحبّة ومودّة بين بني آدم الذين نجوا هداية وقوّة وارتقاء، ولكن لأنَّ الذين أهبط بهم ظلوا على الأرض الدّنيا على ما هم عليه من خلاف، فالخلاف بين بني آدم لا مهمة له إلّا إيقاد نار الفتنة، وهنا تكمن علّة الضّعف والوهن الآدمي؛ حيث بقاء الشّهوة، والرّغبة الجامحة في نفوس من خلف بعض النّاجين؛ ممّا ولّد فيهم ما ولّد من خلافات وانحرافات وشدائد وتأزّمات، وكأنّ الطّوفان لم يحدُث آية؛ فضلّ من ضلّ إلى أن بعث الله إبراهيم نبيا ورسولا، ثمّ بعث من بعده من بنيه أنبياء عظامًا؛ فكان خاتمهم محمّد نبيا ورسولا بالرّسالة الخاتمة، وللنّاس كافّة، ولا إكراه في الدّين؛ حيث تبيّن الرّشد من الغي.

---

[34] هود: 40.

أمَّا بعد انتهاء فترات بعث الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم، أصبح الأمر بين أيدي بني آدم، وفقا لرؤاهم، ومدى ارتقائهم وأخذهم بالفضائل الخيّرة التي أمر بها الخالق؛ ولذا في زمن الرّسل لا وجود للأنظمة الحاكمة؛ بل الأمر كان بين السّماء والأرض إنباء ورسالات (أنبياء ورُسُل). أمّا ما بعد الرّسالات والرّسُل فأصبح الأمر بين النَّاس شورى، وفقا للإرادة والرّغبة والمقدرة والحاجة المتطوّرة: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[35]، والشورى هنا لم تكن خاصّة بالمسلمين، بل هي الحلّ؛ فمن شاء الحلّ؛ فعليه بها ديمقراطية بلا مكاره.

ومن هنا، كان الاختلاف والخلاف في معظمه بين من يحكم من، ومن يأخذ بما أنزلت به الرّسالات الخالدة ارتقاء، ومن يتخلّى عنه دونيَّةً وانحدارًا، وبين من يرى الحريَّة؛ حيث لا إكراه، ومن يرها تمدّدًا خارج الحدود، ومن يرها لا تكون إلّا وفقًا لما يفيد الأنا، أو طائفته، أو قبيلته، أو حزبه، أو مدينته، وفي المقابل هناك من يرى الحرّية عدالة يستظل الجمع تحت مظلتها حقوق تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسؤوليّات تُحمّل، وبين هذا وذاك لا يزال بنو آدم مختلفين، وسيظلون إلّا من رحم ربّك: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[36].

ولأنَّ الاختلاف لن ينتهي بين بني آدم، إذن: فسيظل بينهم حيثما بقوا على أرض الاعوجاج دُنيا، ولا استغراب أن يخالف بعض

---

[35] الشورى: 38.

[36] هود: 118، 119.

النَّاس بعضًا، ولا استغراب أن يتصادم بعضهم مع بعضٍ، ولكن الاستغراب ألا تُصحّح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة تُصلح المعوجّ وتدفعه تجاه الحلّ دون هيمنة ولا حرمان؛ أي: لا ينبغي أن يُلغى الاختلاف، بل ينبغي أن يلاحق الاختلاف حلًّا حيثما حلّ.

وعليه:

في زمن الرّسالات والأنبياء الكرام كان الحلّ يتنزّل على الأقوام والأمم والكافّة من السّماء، أمّا في الزّمن الذي بعد رسول الكافة؛ فلا نبي ولا رسالة بعد الرّسالة الخاتمة، كلّ شيء قد أنزل، وبقي الأمر بين النَّاس شورى، سواء أكان أمر النَّاس سلمًا أم حربًا، أم سياسة داخليَّة، أم سياسة خارجيَّة؛ فما يتّفق عليه من يتعلّق الأمر بهم يُقدّر ويحترم ويعتبر؛ فيقر ويؤخذ به عملًا وفعلًا وسلوكًا، وفي المقابل لا يؤخذ بما يخالفه؛ لكونه معوجًّا.

ولذلك؛ فالاختلاف والخصام والجدال والصّدام في زمن الرّسُل، قد تأسّس على الفضائل الخيّرة التي لا تستمدّ إلّا ممّا أنزل من عند الله، إذ: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[37]، و{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[38]، و{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[39].

---

[37] البقرة: 256.

[38] الشورى: 38.

[39] الكافرون: 6.

فهذه الفضائل ارتقاء جاءت إنسانيَّة، وستظل بين من يأخذ بها ارتقاء إنسانيَّة؛ ذلك لأنَّها فضائل طي الهوة التي تُختلق من الحين والحين بين بني آدم علّة.

أمَّا بعد اختتام الرّسالات والرّسُل؛ فأصبح للقيم الاجتماعيَّة تقدير ومكانة إلى جانب تلك الفضائل الإنسانيَّة. أي: أصبح للخصوصيَّة الاجتماعيَّة أهمية ومكانة، ولتنوّع اللغات أهمية ومكانة، ولما يختاره ويقرّه النَّاس أهمية وضرورة، ومن ثمّ، أصبح للدّساتير والقوانين المنفّذة لها أهميَّة مقدّرة بين الأمم والشّعوب؛ ولذلك فالأخذ بالقيم الحميدة يؤكّد أهمية تلك الفضائل الخيّرة في ترسيخ قيمة الإنسان وحفظ كرامته من خلال عدم إكراهه بأيّة علّة، ومن خلال مشاورته في كلّ أمر يتعلّق به وبمصيره، وفي المقابل من يغفل عن أهمية ذلك، سيجد نفسه شريكًا في كلّ ما يؤدّي إلى الفتن والانقسامات والصّدمات المؤلمة التي لا تكون إلّا على أيدي المعوجين عمّا يجب أن يكون بين النَّاس محبّة ومودّة.

بنو آدم بين الارتقاء والدونيَّة:

كان خَلقُ آدم في أحسن تقويم، خلقا مُميّزا بملكة الاختيار والتدبّر التي كلّما أُحسنت إدارة حفّزت على الأخذ بما يجب، وكلّما سِيئت إدارة حفّزت على الانحدار إلى المنهي عنه، وبين هذا وذاك، فآدم لم يحسن الاختيار المبقي على حُسن التقويم؛ فانحدر معصية مع

انحدار شهوته ورغبته؛ التي جعلته على الهبوط إلى الحياة الدّنيا بعد أن كان في السّماء قمّة.

ولأجل الإيضاح:

هل خُلق آدم على الارتقاء خلقا، أم إنّه جُعل عليه جعلًا؟

أقول:

لو جُعل آدم على الارتقاء جعلا، لكان الارتقاء مستقلًّا عنه وسابقًا عليه، ولأنَّه لا سابق على آدم ارتقاء؛ فهو المخلوق عليه خلقًا: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[40]، ولأنَّه خُلق على الارتقاء خلقا، قال: (في أحسن تقويم)، وفي المقابل لو كان آدم قد جُعل على الارتقاء جعلا لقال تعالى: (على أحسن تقويم) وهو المأمول غير المتحقّق في ذات آدم خلقًا، وهذا ما يخالف دلالة الحُسن التي خُلق فيها آدم خلقًا.

ومع أنَّ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه انحدر إرادة ومعصية؛ فكان في سُفليَّة ودونيَّة أمام خالقه: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}[41]. ومع ذلك استغفر آدم ربّه فتاب عليه، ومن هنا، فتح الله باب التوبة لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}[42].

---

[40] التين: 4.

[41] التين: 5.

[42] التين: 6.

ومع أنَّ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه قد خسر ذلك الارتقاء بمعصية منه، ممّا جعله استغفارا يأمل الارتقاء عمّا انحدر فيه من سُفليَّة؛ فغفر الله له وتاب عليه بغاية الارتقاء إلى تلك المقامات العظام، ولكن الأمر لا يعدّ هينا؛ حيث لا عودة إلّا بالعمل الصّالح الممكّن من الارتقاء إلى تلك القمّة التي أصبحت أمل آدم بعد أن كانت بين يديه.

ولأنَّ العمل ارتقاء يؤدّي إلى ما يُنقذ بني آدم من الألم، كما يؤدّي بهم إلى ما يُغرقهم فيه؛ فهم بين هذا وذاك بين ارتقاء فيه العمل يُتقن، ودونيَّة بها يُهمل وينحرف إلى ما لا يجب؛ ولذلك كان الصّدق ارتقاء في مواجهة الكذب انحدارًا، وكان العدل ارتقاء في مواجهة الظلم انحدارًا، وهكذا كان الحقّ في مواجهة الباطل، والحريَّة في مواجهة الاستعباد، والديمقراطيَّة في مواجهة الدكتاتوريَّة، والاستيعاب في مواجهة الهيمنة والإقصاء، وبين هذا وذاك يجب التحدّي بما يمكّن من الارتقاء قمّة.

ولأنَّ بني آدم بين ارتقاء ودونيَّة؛ فهم بينهما بين ما يرسّخ قيمة الإنسان رفعة ونهضة ومكانة، وما يؤدّي إلى التخلّف والفاقة وتقليل الشأن.

ولذلك فالعمل الصّالح ارتقاء لا يكون إلّا عملًا منتجًا ومتقنًا ومبدعًا ومرسّخًا لقيمة الإنسان، وفي المقابل العمل الفاسد والرّغبة الفاسدة، لا يكونان إلّا على حساب القيم الحميدة، وعلى حساب

مصالح الآخرين، ورغباتهم ومصائرهم وما يشبع حاجاتهم المتطوّرة والمتنوّعة، ومن ثمّ؛ فالعفّة والأمانة والنّزاهة وتحمّل أعباء المسؤوليَّة ارتقاء، ستظل قيما في مواجهة تلك القيم المؤدّية بأصحابها إلى السُّفليَّة والدونيَّة التي تتمركز على الأنا.

إذن: فالارتقاء لا يمكن أن يبلغه بنو آدم إلّا عدلًا وعملًا وعفوًا وصفحًا، وكذلك الانحدار لا يمكن أن يبلغوه إلّا ظلمًا وإهمالًا وتشدّدًا وتطرّفًا؛ ولذا في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ فمن شاء الارتقاء عمل من أجله ارتقاء، ومن شاء الانحدار عمل من أجله سُفليَّة.

وعليه:

فآدم بعد أن خسر تلك المكانة القمّة، عمل على الارتقاء إليها ثانية، ولكن ظل الارتقاء إلى تلك القمّة من قبل بني آدم أملًا وعملًا؛ فمن يعمل صالحا يقترب منها، ومن يعمل باطلا يبتعد عنها، فالإنسان الذي خُلق على الارتقاء بداية، ثمّ انحدر عنه رغبة وشهوة، أصبح ثانية يسعى إلى العودة إلى القمّة، وهو يأمل أن تُرتق الأرض بالسّماء حتى يرى بأمّ عينه ما يأمله ارتقاء.

ولذا فبنو آدم خُلقوا على الاختلاف وسيظلون به مختلفين، حتى أهل الوطن الواحد، والدّين الواحد، واللغة والثقافة الواحدة هم مختلفون قدرات ومواهب واستعدادات وميولًا واتجاهات؛ ولهذا فهم مختلفون بصمة، ولا تناسخ بينهم فيما خلقوا عليه خلقا، ولكن بينهم

تماثل فيما هم عليه من معرفة وعلم وحضارة واقتصاد وسياسة، وآداب؛ ومع ذلك فالاختلاف بينهم لا يلغيه التماثل والتشابه، بل التماثل والتشابه بين بني آدم يؤكّد وجود الاختلاف بلا لبس ولا غموض.

ولأنَّه الاختلاف فهو المحفّز على البقاء تنوّعًا، وهو المحفّز على التغيير الممكِّن من التّعاون والنّهوض ارتقاء، فبنو آدم ارتقاء يعلمون أنّهم لم يجدوا أنفسهم خلقا، بل خَلقَهم من هو أعظم منهم؛ فهم يعلمون أنّهم قبل الخَلق لم يكونوا شيئا يُذكر، ثمّ أصبحوا شيئًا مذكورًا، فهم يعلمون أنّ مشيئة من ورائهم هي التي أرادت لهم خَلقا؛ ولهذا فهم يدركون أنَّهم قبل الخَلق لم يبلغوا مستوى الوجود الصّفري قيمة، ولكن مشيئة الخالق شاءت لهم أن يكونوا شئيا؛ فكانوا شيئا وفي أحسن تقويم: {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}[43].

فبنو آدم لكونهم شيئا مذكورا يدركون مشيئة شاءت لهم أن يكونوا خَلقا وفقا لمشيئة هم لا يعلمونها؛ ذلك لأنَّ المشيء وحده يعلم مشيئة خَلقه، أمّا المخلوف ارتقاء فلا يدرك إلّا وجوده مخلوقا؛ ومع ذلك فهناك من يرى الوجود الكوني مخلوقًا من غير خالق، وهنا تكمن العلّة المعرفيَّة بين من يدرك أنَّه لا مشيئة لمخلوق في خَلقه، ومن لا يدرك ذلك بقوله: إنَّ الكون خلق نفسه ولا خالق من ورائه.

---

[43] مريم: 67.

ولأنَّ بني آدم بين الارتقاء والدونيَّة؛ فهم مختلفون رؤية ومعرفة وعلما؛ ولهذا فهم بين معرفة وعلم يؤدّيان بهم إلى النّهوض قمّة، وجهل يؤدّي بهم إلى الانحدار ودونيَّة.

ولذلك فالإنسان عندما ينهض يرتقي إلى ما يؤدّي به إلى رتق الأرض بالسّماء، وعندما ينحدر يهوي سُفليَّة في القاع، أي: عندما يرتقي يجد نفسه وكأنَّه يحتوي الإنسانيَّة في نفسه، ولكن عندما ينحدر يصبح عقله أشبه بعقل الحيوان: {فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}[44].

أي: عندما ينحدر الإنسان ممّا هو عليه من عقل مدبّر، لا شكّ أنَّه يقترب إلى عقل القرد الذي هو في دونيَّة إذا ما قورن بعقل من خلقه الله في أحسن تقويم؛ فمثل أولئك المنحدرون قيما هم مثل الحيوان الذي لا يتذكّر فيتّعظ، ولا يتدبّر فيخطط، ولا يفكّر فيرتقي إلى ما يجب أن يكون عليه رفعة؛ ولهذا فلا يليق بالعقل الإنساني أن يتشبه سلوكه بالعقل القردي، الذي متى ما انحدر إليه الإنسان أصبح لا فرق بينه ومن هو في دونيَّة: {وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ}[45].

---

[44] الأعراف: 166.

[45] المائدة: 60.

مراحل

الارتقاء الإنساني

مرحلة الفطرة:

الإنسان كغيره من المخلوقات خُلق على الفطرة مسيّرًا على الرَّغم من تميّزه وتفضيله، وفطرة الإنسان هي الولادة التي خُلق عليها، ولا تقليد يسبقه: (كونه في زمن الخلق؛ حيث لا وجود لمن يقلّد من).

ولأنَّ الفطرة خَلقيّة؛ فلا تبديل، أمَّا التقليد؛ فهو اتّباع (اتّباع لاحق لسابق) وهو: المرتكز لأخذ الاقتداء بما يفيد بلا ضرر، أو أخذه بما يُفيد بضررٍ؛ فالأخذ بالقول الحسن والسّلوك الحسن يخلق القدوة الحسنة، والأخذ بالقول أو السّلوك السّيئ يخلق القدوة السيّئة؛ ولذلك فالفطرة لا سيّئة فيها، أمَّا التقليد ففيه من المساوي ما فيه، وهنا تكمن العلّة التي تستوجب حذرا، وإلَّا يصبح التقليد علّة.

والفطرة كونها خُلقيّة؛ فهي سابقة على الدّين الذي ينظّم العلاقات بين الأفراد والأمم والشّعوب، وهو كما ينظّم العلاقات يضبط القول والفعل والسّلوك والعمل. أمّا الفطرة فلا تغيير، كلّ شيء وفق طبيعة خَلقه منظّم: (سلوكه منظم) دون أيّ تطوّر، ودون أيّ ارتقاء؛ فسلوك النّحل وبيوت النّحل هي كما هي سلوك وبيوت، وهكذا سلوك الحيوانات والطّيور والأسماك لا تتغيّر عمّا هو فطرة؛

وذلك لأسباب تطابق التقليد مع الفطرة التي خُلقت عليها، أمَّا الكائن العاقل؛ فلا يتطابق تقليده مع فطرته حتى وإن تماثل في كثيره.

فالفطرة تدلّ على تطابق طبائع وسلوك المخلوق مع الطّبيعة التي خُلق عليها؛ ممّا يجعل الكائنات غير مخالفة لطبيعة خلقها، فلا الطّائر لا يطير، ولا الأفاعي لا تزحف، ولا الإنسان لا يمشي سويًّا؛ ولأنَّ التطابق بين الفطرة والخَلق هو لا تخيير فيه؛ فلا أحد يستطيع أن يغيّر الفطرة التي خُلقت المخلوقات عليها؛ فالجبال ستظل أوتادا في الأرض، والسّحب ستظل معلّقة بين السّماء والأرض حتى تتساقط مطرا، وهكذا الأنهار ستظل تجري إلى النّهاية، ولكن في دائرة الممكن ارتقاء تُغيّر مجريات الأودية، وكذلك تُزرع السّحب؛ فتتساقط مطرا، وتُخرق الجبال أنفاقًا، ولكنّها لا تُلغى، وكذلك هو حال السّحب والأودية؛ فستظل وفقًا للفطرة سُحبًا تمطر، وأودية تجري، وجبالًا أوتادًا.

فالإنسان خُلق كغيره من المخلوقات على الفطرة؛ حيث لا تخيير في فطرته، بل التّخيير في معرفته التي تؤثّر على قوله وفعله وعمله وسلوكه (ارتقاءً أم انحدارًا)، ومعظم الكائنات تقلّد ما فُطرت عليه إلّا الإنسان بإمكانه المخالفة؛ فالنّحل فُطِر على علاقات وسلوك وعمل لا يخرج عنه شيئا؛ ولهذا ففراخ النّحل تقلّد آباءها سلوكًا وعملًا دون إضافة لما بلغه السّابقون منهم؛ فسلوك ذلك الزّوجين من النّحل خلقا، هو بالتّمام سلوك النّحل المتكاثر تزاوجا، وهكذا هو التقليد كما هو حال النّمل والطّيور والأسماك والحيوانات وغيرها من

بقيّة الكائنات تكاثرا، إنّه السّلوك المتطابق مع الفطرة التي خلقت الكائنات عليها، إلّا سلوك الإنسان، ومعارفه، وثقافته، وعلمه؛ فهو قابل للتبدّل والتغيّر والتطوّر والارتقاء أو الدونيَّة.

فالإنسان فُطر تسييرا فيما لا يملك قوّة لتغييره، وفُطر تخييرًا على التقليد الذي بإمكانه أن يغيّره، أو يبدّله، أو يطوّره ارتقاء، أو أن ينحدر به سُفليَّة، وهو بين هذا وذاك في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع يتبدّل علما وثقافة ومعرفة وسلوكا وعملا.

ومع أنَّ حياة الإنسان وفطرته جاءت خَلقا، فإنَّه في دائرة الممكن يأخذ من الفطرة ما هو تقليدٌ؛ ففطرته تختلف عن بقية الكائنات التي جاءت حياتها وفطرتها على التطابق بالتّمام تقليدا؛ فالإنسان لم يأخذ بالفطرة كلّها، بل أخذ منها ما هو ممكن، وكذلك ترك منها ما هو ممكن؛ وفقا لاختياره وإرادته؛ ومن ثمّ فلا تطابق بين فطرة الإنسان وتقليده.

فالإنسان يختلف عن الكائنات الأخرى تذكّرا، وتدبّرا، وتفكّرا، ومسؤوليَّة؛ ذلك لأنَّ المسؤوليَّة لا تلحق إلّا من هو مخيّر؛ ممّا يجعل وجوب حُسن الاختيار لمن أريد به أن يكون مسئولًا، وإلّا ستكون الأعباء حملًا ثقيلًا على كاهل من لا يحسن اختياره.

فالاختيار، إن أُحسن تدبّرا أَحدث النُّقلة إلى ما هو أكثر ارتقاء، وإن لم يُحسن الاختيار؛ فسيؤدّي بأصحابه إلى السُّفليَّة والانحدار والدونيَّة؛ ممّا يجعل السّلوك الانحرافي في حاجة للتقويم حتى

لا تسود المفاسد والمظالم (هيمنةً وحرمانًا)؛ ولذلك فالتقليد بالنّسبة إلى الإنسان لا يقيّده إلّا انعدام المقدرة والمعرفة والإرادة؛ ولذا فإن كانت هناك مقدرة عالية، يصبح التقليد عاليا، وإن كانت ضعيفة، يصبح التقليد ضعيفا، وكذلك إن كانت الإرادة حرّة، فتحت كلّ السُّبل أمام الإنسان في دائرة الممكن سلبًا أم إيجابًا، وفي المقابل إن كانت الإرادة في حالة ضيق أو منعدمة؛ فلا يجد التقليد مجالًا للامتداد.

ومن هنا؛ فالفطرة ارتقاء خَلق، خُلق الإنسان عليه تسييرًا وتخييرًا، فما هو تسيير فلا إمكانيَّة للخروج عنه، وما هو تخيير فعليه أن يتذكّر؛ حتى يدرك المواعظ والعبر، وعليه أن يتدبّر ما يمكّنه من إشباع حاجاته المتطوّرة دون أن يتمدّد إشباعًا على حساب مشبعات حاجات الغير، ثمّ عليه أن يفكّر فيما يحدث له النُّقلة، ويمكّنه من الارتقاء المأمول.

والاختلاف بين الفطرة والتقليد، هو أنَّ الفطرة لا تكون ما لم يكن الخَلق، أمّا التقليد فهو المرتبط بالسّلوك؛ ولذا فالفطرة ليست هي الخلق، بل هي نشوء فيه، وهي الحالة التي تجعل المخلوق العاقل بين تسيير وتخيير، فما هو مسيّر لا إرادة فيه، وما هو مخيّر فالإرادة مركزه في ذهن العاقل، الذي بإمكانه أن يرتقي إن أحسن اختياره وتدبّره، ولكن إن لم يحسن اختياره وتدبّره؛ فلا سبيل له إلّا الانحدار الذي من بعده يكون النّدم والألم، وهما: إن ألما بالإنسان جعلاه في حاجة لمنقذ.

ومع أنَّ التقليد على علاقة بالفطرة، فإنَّ هناك فرقًا بين تقليد الإنسان، وتقاليد الكائنات الأخرى؛ ذلك لأنَّ تقليد الإنسان هو بين تسيير وتخيير، أمَّا تقليد الكائنات الأخرى؛ فهو التقليد المسيّر؛ حيث لا مجال فيه للتخيير، كما هو حال النّمل والنّحل وبقيّة الكائنات الأخرى في تنظيم علائقها (تقليد فطرة) لا تقليد تذكّر وتدبّر وتفكّر كما هو حال الإنسان؛ ولهذا فتقليد الكائنات تقليدُ مراوحة في المكان الواحد، أمَّا تقليد الإنسان؛ فهو تقليد البحث عمّا يُمكّن من إحداث النُّقلة إلى ما هو مأمول ارتقاء.

ومن ثمّ؛ فالفطرة تثبّت الطّبيعة التي خُلقت المخلوقات عليها هي كما هي، أمّا التقليد فيُثبّت سلوك العادة سواء أكانت عادة متطابقة مع الفطرة، أم إنّها مختلفة عنها، أي: إنَّ سلوك الكائنات يتأثر سلبًا وإيجابًا بما ينسجم مع نواميس الطبيعة الخَلقيّة وما لا ينسجم معها؛ فالتقليد الفطري، تقليد طبيعي يجسّد الحقيقة الخلقيّة، أمّا التقليد الخارج عن الفطرة؛ فهو المخالف لنواميس الطبيعة، التي تؤثّر على غرائز المخلوق وحاجاته الضّروريّة؛ فعلى سبيل المثال: الإنسان عندما يعطش سيتوجّه إلى مصادر المياه؛ ليروي ظمأه رغبة وإرادة وضرورة مُلّحة، وهذا هو الأمر الطبيعي الذي يتوافق مع الفطرة، ولكن إن مُنع من ذلك؛ فليس له إلّا قبول دفع الثّمن حتى النّهاية استجابة أو اقتتالا، وهكذا إن جاع، فليس له إلّا التوجّه إلى مصادر إشباع الحاجة (حياةً أو موتًا)؛ ولذلك فعندما تتطابق الفطرة

مع التقليد تصبح الغرائز أكثر ضغطًا على أصحابها، ولا إمكانيَّة للتخلّص منها إلّا إشباعًا أو القبول بدفع الثّمن.

ومن ثمّ؛ فالتوجّه للبحث عن مصادر بقاء الحياة تقليدًا يتوافق مع الفطرة، أمَّا المقاتلة من أجل الحياة تقليدًا فلا يتوافق معها؛ ولهذا فالكائن العاقل في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع يتذكّر ويتدبّر ويفكّر بما يتطابق مع فطرته دون أن يقصر ذلك عليها؛ ممّا يدعوه أحيانًا إلى ما هو ممكن تقليدا، أمّا بقيّة الكائنات فلا تُدبِّر أمرها إلّا تقليدًا متماثلًا مع الفطرة؛ ولذلك فهي كمن يراوح في مكانه بلا أمل؛ حيث لا مستقبل تدركه سوى الفطرة التي خُلقت عليها بلا تخيير.

فالفطرة ليست بسلوك، بل هي طبيعة المخلوق التي خُلق عليها، والتي لا يمكن أن يخالفها في بعض الأحيان إلّا تخييرًا؛ ولهذا فالكائنات التي خُلقت على التسيير لا إمكانيَّة لها أن تتجاوز ما فطرت عليه خَلقا؛ فهي كائنات تدرك وتسلك تقليدا، أمَّا الكائن العاقل، فإنَّه يدرك تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرا، ثمّ يخطط ويعمل ويسلك، أي: إنَّ الكائنات يمكن أن تُعلّم، أمّا الإنسان فإنَّه في دائرة الممكن يتعلّم؛ ومن هنا فالفرق كبير بين التعلّم والتعليم؛ فالتّعلّم تهذيب سلوك أو تغييره، أمّا التعليم فإنتاج معرفة وتطويرها؛ حيث إمكانيَّة تحديد الأهداف التي من ورائها أغراض، والغايات التي من ورائها نهضة وارتقاء.

فلو عُدنا لخلق الإنسان الأوّل (آدم) فلا نجد له تقليدًا؛ ذلك لأنَّ التقليد لا يكون إلّا لسابقٍ؛ ولأنَّه لا سابق لآدم من جنسه حتى يقلّد ما سبقه عليه من سلوك أو عادة؛ فهو الأوَّل الذي من بعده أصبح التقليد الآدمي يعلّم، فآدم لم يعرف النّدم إلّا بعد أن شعر به عندما ارتكب فعل الخطأ الذي بوقوعه فيه معصية، عرف شيئين في وقت واحد: (النّدم والألم النفسي) النّدم على فعل المعصيّة، والألم النفسي من الدونيَّة التي وقع فيها بعد أن كان في علّية وارتقاء.

فآدم بعد أن عصى ربّه بأسباب الأكل من المنهي عنه، عرف أنّ ما يُنهى عنه لا يكون إلّا مخالفا للفطرة الخلقيَّة (في غير مرضاة الخالق)، أي: إنَّ المنهي عنه، لا يكون إلّا لضررٍ، سواء أكان نفسيًّا، أم صحيًّا، أم خُلقيًّا، فآدم بعد أن أكل من تلك الشّجرة المنهي عن الأكل من ثمارها ندم وتألم، وظل على ما ألمّ به من ندمٍ وألمٍ حتّى غفر الله له ذنبه، ومع ذلك صدر عليه حكم الهبوط من الجنّة ارتقاء، إلى الحياة الدُّنيا على الأرض الدُّنيا.

ولذلك؛ فبأفعال المخالفة والمعصية يتمّ استشعار الذّنب؛ فيولد النّدم والألم في نفس من يأمل الارتقاء عمّا وقع فيه من معصيّة، ومن ثمّ، ليس للإنسان إلّا أن يلتفت إلى نفسه استغفارا وتوبة تخرجه من التأزّم إلى الانفراج، وتعيده إلى حيث ما يجب أن يكون عليه ارتقاء؛ فآدم بعد الهبوط على الأرض الدّنيا لم يظلّ له أمل سوى أمل الارتقاء إلى تلك الجنّة التي خسرها بعلل الشّهوة والرّغبة والإرادة غير المقيّدة من غيره من الخلق؛ حيث لا وجود لبشرٍ سوى الخلق الزوجي

(آدم وزوجه)؛ ولهذا فلا امتداد على حساب الغير، ولكن جاء الامتداد أو حدث على حساب الفطرة ونواميس الطبيعة، عندما امتدّت رغبة آدم وزوجه إلى الأكل من تلك الشّجرة التي نهي الله عن الأكل منها.

إذن: أساس الحياة هي الفطرة التي خُلقت عليها الأزواج كلّها، أمَّا التقليد فكان نتاج الكثرة تزاوجًا؛ ممّا جعل الأبناء بين أيدي الآباء يحيون تقليدا؛ فالدّجاجة التي لم ترضع، جعلت أبناءها تقليدا يلتقطون الطّعام بمناقيرهم مثلما تفعل هي، وهكذا بقيَّة الكائنات لكلٍّ فطرته التي فُطر عليها بخاصيّة تميّزه عن غيره من الكائنات الأخرى، التي فطرت على ما فطرت عليه تقليدا: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}[46]، أي: لا تبديل للفطرة، ولكن التبديل يتعلّق بما يُمكن أن يُقلّد؛ ولهذا سيظل الإنسان هو الإنسان كما خلقه الله على الفطرة التي لا تتبدّل، ولكن خيارات الإنسان بين يديه تتبدّل، وفقًا للرّغبة والشّهوة والإرادة التي لا تكون إلّا بأسباب التخيير.

فآدم بعد أن أنبأه الله وعلّمه ما لم يكن يعلم، أنبأ الملائكة والجنّ والإنس بما أنبأه الله؛ فسجد الملائكة لآدم طاعة لأمر الله، ومن هنا، كان التقليد طاعة للأمر الحقّ تسليما. وفي المقابل فطرة

[46] الرّوم: 30.

وتقليدا وارتقاء لا يُسلّم للباطل ولا المظالم حتى وإن وقعت أو حدثت كرها.

ولهذا، فإنَّ الفطرة خَلقية تستوجب التسليم، أمّا التقليد الواعي فلا يكون إلّا عن معرفة نابعة من الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، وهذه تستوجب الاتباع سلوكا، وهنا تتضح العلاقة بين الفطرة والخَلق، كما تتّضح العلاقة بين التقليد والقيم الخُلقيّة، أي: إنّ الفطرة تتعلّق بالخَلق، أمّا التقليد فيتعلّق بالأخلاق التي تستمدّ من الفضائل والقيم المتطابقة مع نواميس الفطرة الخَلقيّة.

وعليه: فإنَّ الحياة البشريَّة مؤسّسة على ثلاث دعائم:

. الخَلق (الفطرة).

. النّشوء (التّقليد).

. الارتقاء (الممكِن)

وهذه هي الفطرة التي فُطر النَّاس عليها، فإن تطابق السَّلوك البشري معها تقليدا، كان سلوكا مرضيا؛ حيث لا تأزّم وإن خالفها تقليدا كان الألم والتأزم.

ولذا؛ فالألم والدونيَّة والتأزّم كما تكون بعلل المخالفة للفطرة، فكذلك تكون بعلل التقليد دونيَّة، أمّا التقليد ارتقاء فلا يكون إلّا مخلّصا من الألم والدونيَّة والتأزّم، ولا يقف عند هذا الحدّ، بل يتعداه إلى ما يُمكّن من تحقيق النُّقلة المرجوة ارتقاء.

وبالعودة إلى فطرة آدم الخَلقيّة (في أحسن تقويم)، نلاحظ أنّه قد خُلق وهيّء إلى ما يمكّن من التقليد ارتقاء؛ فعلّمه الله ما لم يكن يعلم: (النبأ العظيم) فتعلّمه، ثمّ أنبأ به غيره، ولكن هناك من آمن وهناك من كفر؛ فالملائكة سجدوا لآدم طاعة لأمر الله، وفي المقابل إبليس كفر؛ فعصى الأمر، وهنا كمُنت العلّة.

ومع أنَّ إبليس مصدر الإغواء والتزيين المزوّر للحقائق، فإنَّ هناك من الأعمال البشريَّة ما لا علاقة لإبليس بها؛ فالإنسان الذي خُلق على الفطرة، خُلق على التقليد أيضا، ولكن أيّ تقليد؟ إنّه التقليد تخييرا: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[47]، أي: لا إكراه: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[48]. هذه هي الفطرة، فمن شاء تقليدًا أن يؤمن فليؤمن بما يتطابق مع الفطرة الخَلقيّة، ومن شاء أن يخالف الفطرة تقليدا فبإمكانه أن يكفر، ولكن لكلّ حسابه: {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ}[49].

ولذلك؛ فالأخذ بما يتوافق مع الفطرة يمكّن من التوافق النّفسي، كما يمكّن من التوافق البيئي، أي: عندما تتوافق الطبيعة الفطرية مع التقليد ارتقاء، تصبح البيئة بلا تلوّث، وتصبح العلاقات

---

[47] الكهف: 29.

[48] البقرة: 256.

[49] الأعراف: 8، 9.

الإنسانيَّة بلا انحرافات أخلاقيَّة، ولا مظالم، بل التوازن هو شعرة اعتدال كفّتي الفطرة والتقليد.

فآدم الذي خُلق على الفطرة، خُلق معتدلا في أحسن تقويم، ولكن عندما حاد آدم عن الفطرة، وجد نفسه منحدرا بأسباب مخالفته قواعد البقاء الدّائم ارتقاء، الذي من بعده أصبح الهبوط أمرًا واقعًا؛ حيث لا مكان للتخيير، فالتخيير فرصة تمنح؛ من أجل حُسن الاختيار عن إرادة، ولكن من يعمل على إضاعة الفرص ارتقاء فالفرص ارتقاء قد لا تتكرر، وفي المقابل فرص الانحدار تتعدد وتتنوّع وتتضاعف بكتيريًّا.

ومع ذلك، عندما تُمنح فرص التخيير ارتقاء، تمكّن من التعلّم تقليدا، كما تمكّن من التّعليم بحثا ومعرفة، برهانا من بعده برهان، وحُجّة من بعدها حُجّة، ومعلومة تولّد معلومات، وتجربة تولّد تجارب، وخبرة تفسح السّبيل أمام خبرات، ولا غاية من وراء ذلك ارتقاء إلّا رتق السّماوات والأرض جنّة.

إنَّ الفطرة سُنّة الخَلق التي خُلق الكون عليها معتدلا بمعطيات التضادّ سلبا وإيجابا، أي: لو لم يكن التضاد الكوني لكانت المغالبة التي تنهي الوجود عدما؛ فالاختلاف من سنّ الخَلق الباقية ولا تبديل: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[50].

[50] هود: 118، 119.

ولأنَّ الاختلاف فطرة خَلقيّة؛ فلا مفرّ منه، بل ينبغي المفرّ إليه مع الآخر وطي صفحات الخلاف معه، وفي المقابل تترك صفحات الاختلاف مفتوحة فطرة وصبغة؛ ولذلك سيظل الإنسان هو المتصدّر للاختلاف تخييرًا (رغبة وإرادة)، ولا تبديل لفطرة الاختلاف، ومن هنا، نجد الأصوات تُرفع على الأصوات تقليدًا، وكأنَّ الأطراف المتخاصمة لا تعرف أنّ الحقّ دائما أعلى من أيّ صوت؛ ولأنَّه كذلك فلا داعي لرفعه، فاترك الحقّ يعلو تقليدًا وارتقاء على كلّ شيء بما فيه صوتك، وإن كان خصمك على حقّ فلا ترفع صوتك عليه، وإن رفعته فلا تستغرب أن يأتي اليوم الذي تُلجمك فيه الحُجّة، ويكون صوته بين النَّاس وعلى الملأ أكثر منك حجّة وارتقاء.

الفطرة لا تكون إلّا على الاختلاف، الذي به تُميّز طبيعة الأجناس والأنواع، وبه تترسّخ الخصوصيَّات، وتشبع الحاجات المتطوّرة بلا ملل؛ فالفطرة هي الطّابع المرسّخ لهويَّة الخلائق بشكل عام، ولا خصوصيَّة فيها كما هو حال الصّبغة التي تتعلّق بالصّفة المميّزة للأجناس والأنواع؛ فالفطرة تتعلّق بالعموم، أمَّا الصّبغة فتتعلّق بالخصوص؛ ولذلك فما يخصّ الإنسان يُصطبغ به، وهو يختلف عمَّا يخصّ بقيّة الكائنات تنوّعًا، أي: ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان ليس هو ما ينبغي يكون عليه الحيوان أو الطّير أو السّمك، وكذلك ما ينبغي أن يكون عليه الرّجل ليس هو ما ينبغي أن تكون عليه

المرأة؛ ولهذا فلا تبديل لخلق الله: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا}[51].

فالفطرة ثوابت تُسيّر المخلوقات وفقا لنواميسها الطبيعيَّة التي لا تتبدّل: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[52]؛ وفي هذا الأمر لا إمكانيَّة للتخيير، وهنا تتساوى جميع المخلوقات بما فيها الإنسان، الذي تميّز بخاصيّة التخيير فيما لم يكن مسيّرًا فيه.

ولأنَّ الفطرة خَلق، فالدّين يتطابق مع نواميسها الطبيعيَّة تمامًا؛ فهو أحكام وقوانين منظّمة للعلاقات وضابطة لها، وهو كما يمكّن من معرفة المستحيل والمعجز، يمكّن من إحداث النُّقلة وبلوغ المأمول ارتقاء؛ ولذلك أنزلت الرّسالات السّماوية؛ لتجيب على المجهول، وتمكّن من معرفته تسليما وإعجازا، أو إدراكه مشاهدة وملاحظة؛ فمن يأخذ بأحكام الدّين وقوانينه وفضائله يجد نفسه منسجما مع فطرة خلقه في أحسن تقويم بلا مخاوف ولا شكوك، ومن لم يأخذ بها يجد نفسه وكأنّه في مواجهة مع الجاذبيَّة، أو وكأنَّ وجوده على الأرض من خارج هذا الكون.

مرحلة التقليد:

التقليد ارتقاء لا يؤدّي إلّا لموجب، وفي المقابل التقليد انحدارًا لا يؤدّي إلّا لسالبٍ، ومن هنا، يتولّد الحوار بين ما يؤدّي إلى

---

[51] الروم: 30.

[52] النمل: 88.

الارتقاء، وما يؤدّي إلى الانحدار؛ فالذي يؤدّي إلى الارتقاء لا غاية من ورائه إلّا اتباع الحقّ، والاقتداء به، وبمن يتّخذه سلوكًا وعملًا مفعولًا، أي: إنَّه الاقتداء الذي لا يخضع للبيع والشراء؛ ذلك لأنَّ ما يباع ويشترى يُدخِل أصحابه في خانة التبعيّة والانقياد وفقا للثّمن المباع به أو الثّمن المشترى به؛ فالتقليد ارتقاء يستوجب اتباع الحقّ الذي لا يضع مُتّبعيه في خانة الدونيَّة: {اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ}[53]، بمعنى: اتبعوا من جاء من أجلكم دون أن يسألكم مقابلًا، أي: اتبعوا من يراكم قيمة في ذاتكم لا من لا يراكم إلّا بما تقدّموه بيعا أو شراء.

أمّا الذي يؤدّي إلى الانحدار؛ فهو الضّعف الذي له من القيم السّلبية ما له، كالشّهوة، والشّخصانيَّة، والطّمع، والاتّكاليَّة والنّفاق والجبن والخيانة.

ولهذا فالتقليد ارتقاء لا يكون إلّا بتوافر الحُجّة المحقّة للحقّ والمدحضة للباطل، أمَّا التقليد المورّث بغير حُجة الحقّ؛ فلا يزيد أصحابه إلّا ضلالا: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُّهْتَدُونَ}[54] ومع ذلك؛ فالذين لا حجّة لهم، هم الذين يجب حوارهم وجدالهم؛ حتى يتحرّروا من قيود التقليد الحائل بينهم والارتقاء؛ ولذلك فاتباع العقل اتباع قدوة وحُجّة، وليس اتباع موروث وأشخاص؛ فالموروث الذي لا يُمكّن من أخذ المواعظ والعبر من

---

[53] يس: 21.

[54] الزخرف: 22.

التّاريخ، هو مورث مُفلس لا قيمة له، وهذا الأمر يجعل بعض النَّاس كمن يلكّ العلكة ثم يخرجها من فمه؛ ليتركها لمن بعده لعلّه يلكّها، وهذا ما يؤدّي إليه التقليد المفسد للقيم التي تمكّن الإنسان من الارتقاء، وإن لم يدرك بعض النَّاس مخاطر ومفاسد التقليد عن غير دراية، سيجدون أنفسهم يعيشون عصرًا قد تجاوزته العصور: {وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}[55].

فالتقليد الذي ينبغي الأخذ به، هو الممكّن من تجاوز ما يؤلم، أو ما ينذر بألم، وهنا وجب التمييز بين ما يمكن أن يكون تقليدًا نافعًا، وما هو أهواء بمبررات مجهولة: {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[56]؛ فينبغي أن يكون التقليد والاتباع للفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، والنَّاس القدوة، كما كان سيدنا إبراهيم عليه السَّلام الذي وُصِفت قدوته بالأمّة: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً}[57]، أي: فمن أراد أن يكون قدوة حسنة؛ فعليه أن يستوعب القيم الحميدة للأمّة كلّها، ثم يجسّدها في سلوكه كما جسّدها إبراهيم عليه السلام؛ لتكون من بعده بين أيدي الأنا والآخر (النَّاس) رحمة تجمع الشّمل على الكلمة السّواء.

فالاقتداء أساسه الحُجّة الفاصلة بين الحقّ والباطل، وليس تقليدا للأفراد في ذواتهم؛ ذلك لأنَّ الفضائل والقيم تبقى، أمّا النَّاس

---

[55] الأعراف: 142.

[56] الجاثية: 18.

[57] النحل: 120.

فزائلون: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}[58]. أي: اتبعوا ما يبقيكم على المكانة والرّفعة، ولا تتبعوا الزائلين، وإن أردتم أن تكونوا قدوة حسنة وخلائف في الأرض؛ فخذوا ما أمر الله به ارتقاء؛ لتجعلوه تقليدا لمن خَلفَكم، وهو التقليد الذي يمكّن مَن خلفكم مِن تنظيم حياتهم على المحبّة والوفاق، ويمكّنهم من العمل المنتج بلا مظالم.

ومع أنَّ الاقتداء بالفضائل لا يكون إلّا في مرضات الله، فإنَّ الإنسان حتى وإن أخذ بكلّ ما قاله الله فلا يمكن له أن يكون الله، بل يكون قدوة حسنة في مرضات الله، وهو الذي خُلق الإنسان من أجله، وإلّا هل هناك من يظن أنّ الخالق قد خَلق العباد لمعصيته؟

وكذلك، وإن أخذ الإنسان بكلّ ما جاءت به الرّسُل؛ فلا إمكانيَّة لأن يصبح أحد رسولا، ولكن تقليدًا بإمكانه أن يكون قدوة حسنة: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}[59].

ولهذا؛ فالتقليد الحسن يجعل من المقلِّد قدوة حسنة، وفي المقابل التقليد السيئ، لا يجعل من صاحبه إلّا سيئًا، ومهما بلغ التابعون من التقليد؛ فلن يكونوا مبدعين إن اقتصر تفكيرهم على التقليد فقط؛ ولذا فالقدوة الحسنة يمكن أن يكون من الذين قضوا نحبهم كما هو حال الأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام: {قَدْ

---

[58] الأعراف: 3.

[59] الأحزاب: 21.

كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ}[60]، وكما هو حال رجالات التاريخ، مثل: الشيخ عمر المختار، والشيخ عبد القادر الجزائري وغيرهم كثير؛ فهؤلاء ومن كان مثلهم مع أنَّهم ليسوا من الذين على قيد الحياة، فإنَّهم خير قدوة، ولكلّ رسالته التي بقيت حُجّة بين أيدي المقتدين به. أمَّا القدوة على قيد الحياة فإلى جانب كونه قدوة فضائل وقيم، فإنَّه ينبغي أن يضيف إلى ما جعله قدوة، ما يجعله قدوة أكثر ارتقاء، وهكذا يصبح الاقتداء من حسنٍ إلى ما هو أحسن من أجل بلوغ القمّة قيما وفضائلَ.

ومع أنَّ التقليد لا يكون إلّا لسابق، فإنَّ التقليد الحسن دائمًا يتجدّد، والتقليد ارتقاء دائما للأحسن حتى وإن جاء ممّن هو أقل مكانة، كما هو حال ابن آدم الذي كان الغراب أكثر منه معرفة بما يُمكن أن يُقلّد؛ فابن آدم الذي قَتل أخاه ولم يكن يعرف كيف يواري سوءته، وقف عاجزا في حيرة من أمره إلى أن بعث الله غرابا؛ ليريه كيف يواري سوءة أخيه: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي}[61].

إذن: التقليد ارتقاء لا يكون إلّا بالمعرفة المرشدة لما هو أفضل، وممّن تكون، فالأشخاص لو لم تكن لديهم المعرفة الكافية والواعية؛ فلا إمكانيَّة لأخذهم قدوة، وعندما يفتقر الإنسان إلى المعرفة الحسنة

---

[60] الممتحنة: 4.

[61] المائدة: 31.

فلا إمكانيَّة لأن يكون قدوة؛ ومن هنا فمن تكون له المعرفة ارتقاء يكون قدوة حسنة ما تجسّدت المعرفة الواعية في سلوكه، ومن يفتقدها فلا اقتداء به.

ولأنَّه التقليد فهو اللاحق على السّابق، وليس بالضّرورة أن يكون مُبدعا في الوقت الآن؛ ولهذا فالشيء المبدع لا يكون تقليدًا إلّا بعد أن يؤخذ به عملًا وسلوكًا، ومع ذلك فالتوقّف عند التقليد لا يمكّن من الارتقاء المأمول؛ ولهذا وجب العمل بغاية تطوير المعارف والوسائل والأساليب والمناهج؛ حتى تتّسع دائرة القدوة والمقتَدى به.

إذن: التقليد لا يمكن أن يوصف بهذا الصّفة إلا إذا لاحق فعلًا سابقًا؛ ومن هنا فهو لا يعدّ إبداعًا، بل هو ملاحقة لما يجب أن يلاحق من أجل ملاحقة ما يجب أن يكون ملاحقًا، أي: يجب ملاحقة الماضي وأخذ المواعظ والعبر منه، ثمّ الانطلاق من المواعظ والعبر إلى تحقيق ما هو مأمول ارتقاء.

والتقليد يُمكِن أن يكون متطابقا مع الفطرة، ويمكن أن يخالفها، وفي كلتا الحالتين التقليد يؤسّس للمعرفة، ولكن أيّة معرفة؟ فإن كانت المعرفة مؤدّية إلى ما يمكّن من حُسن التدبّر، كانت معرفة محفّزة على تحقيق الأجود والأكثر فائدة والأنفع، ولكن إن كانت على عكس ذلك فلن تكون مؤدّية إلّا لما يؤلم.

وعليه:

فالتقليد لا صفة له في مفهومه إلّا إذا صُنِّف ووصِّف، وإن لم يُصنّف ويوصّف، يظل مفهوما ساكنا، وكأنّه لا علاقة له بالحركة المحفّزة على الفعل والسّلوك والعمل؛ فهو في دائرة الممكِن بين متوقَّع وغير متوقَّع؛ فالمتوقَّع بالنّسبة للموجب موجبٌ، والمتوقَّع بالنّسبة للسّالب سالب، أمّا غير المتوقَّع فهو المفاجئ لكلٍّ من الموجبِ والسالبِ، ومن هنا، نجد الشّخصيّة الأنانية قدوة لمن يكون أنانيا، والشّخصية الموضوعيَّة تكون قدوة لمن شاء أن يكون موضوعيّا، وهكذا ستكون المقاييس مختلفة بالنّسبة للشّخصيَّة الذّاتيَّة والإنسحابيَّة والتطلّعيَّة، وفي كلّ الأحوال التقليد يمكن أن يتغيّر بالتّعلّم والتّعليم والتّربية؛ ولذلك فالمنطق ارتقاء يقرّ أنّ: (أنا) و(أنت) طرفان مختلفان؛ فأنا لم أكن أنت، ولن، وأنت كذلك لم ولن تكون أنا؛ فأنت بالنّسبة لي تعد الآخر، وهكذا (أنا) بالنّسبة لـ(أنتَ).

فالمنطق تقليدا وارتقاء وحده الذي يؤسّس لحوار تعتدل فيه كفّتي الميزان؛ حيث لا مغالبة ولا إقصاء بغير حقّ؛ ولذلك فمِن مستهدفات منطق التقليد ارتقاء أن تسود بين المتحاورين القيم الاستيعابية (نحن)، بدلًا من منطق (أنا أو أنت)؛ فمنطق (نحن) منطق استيعابي لا يستثني أحدا من المتحاورين المختلفين، أمّا منطق (أنا) أو (أنت) فهو منطق إقصائي يفرّق بلا حُجّة؛ ولذلك يا ليته لم يكن تقليدًا.

ومن ثمّ، لا يُمكِن لنا أن نُحدّد ما يُمكّن من التقليد ارتقاء ما لم نعرف معايير المقلّد؛ فأهل الأوطان والأديان عندما يقرّرون ارتقاء الأخذ بالتقليد الممكن من الالتقاء على الكلمة السّواء؛ فلا بدّ لهم من الجلوس على طاولة حوار واحدة؛ حتى يتبيّنوا المعايير الممكّنة من الأخذ بالكلمة السواء، وهي الكلمة التي تجمعهم وتجعلهم على الحقّ بلا مخاوف: (نحن سويّا، نحن معًا).

ولكن إذا لم يحتويهم مفهوم (نحن معًا)، سيظلون على ما هم عليه بين الضميرين (نحن) أم (أنتم)؛ ممّا يجعل التقليد بين الأفراد مؤسّس على المفهوم: (أنا) أو (أنت).

ولهذا؛ فالتقليد (أنا) يختلف عن التقليد (أنت)؛ ومع ذلك نحن سويّا نمتلك المقدرة الحسّية التي تجعل بيننا مبدأ التقبّل تقليدا هو السّائد، والعقل تقليدا وارتقاء هو مصدر الحوار، والمنطق تقليدًا وارتقاء هو الوسيلة المثلى التي نحتكم بها حجّة ومن ورائها حُجج.

ولأنَّنا نمتلك ثروة هائلة من قواعد المنطق تقليدًا، ونمتلك ثروات هائلة من المشاعر والأحاسيس والطموحات والآمال، فَلِمَ لا نترك تقليدًا يُسخّر كلّ ذلك من أجلنا جميعًا؟

ولماذا الفُرقة التي تترتّب عليها العداءات التي تحول بين التقائنا: (أنا وأنت)؟ ولِمَ لا نكتب معًا: (نحن بني الوطن الواحد،) نحن الذين تربطنا علاقات فسيحة مع بني آدم (الإنسانيَّة) ونقرّ أنّ لكلّ خصوصيَّة.

وعليه:

فكلمتا: (أنا أو أنت) تقليدًا، تسمح بمسافة فراغ تجذب مشاعر الحذر وأخذ الحيطة إليهما؛ فكلّما زاد تمسّك وتعصّب الأنا بأناته، اندفع (الأنت) لإعادة حساباته تقليدًا، وهذه تزيد الشكوك وتقلل من الثّقة التي ينبغي أن تغرس وتسود بين الطّرفين: (أنا وأنت)، فأنا الفرد ينبغي أن أسود بكرامتي، وأنا الحرّية ينبغي أن أعمّ النَّاس، وأنا الشفافية ينبغي أن أكون السّلوك والفعل، وأنا الوطن ينبغي أن أكون ملكًا خالصًا لأهلي، وأنا المحبَّة والأبوَّة والأمومة والأخوة والأسرة والجيرة التي لا ينبغي أن يحرم أحد من مشاعري وانتمائي.

فأنا المنطق تقليدًا وارتقاء: ينبغي أن أسود بينكم إذا أردتم التفاهم والتواصل، أو أردتم الاعتراف والتقدير والاحترام، وكذلك متى ما أردتم غرس الثّقة بينكم أخوة متحابّين، وهكذا أنا النَّاس كلّ النَّاس تقليدًا وارتقاء.

ومن ثمّ، فكلمة (أنا) تقليدا هي كلمة حقّ لا بدّ أن تقال، وفي المقابل تصبح كلمة الباطل التي عليها (أنت) باطل لا بدّ أن يزال، وكلمة: (أنت العبد) ينبغي أن تصبح في خبر كان بأسباب الحرّية والانعتاق، وعندما تكون (أنت) الاستعمار يجب أن تُهزم وترحل أو ترحّل، وأنت القيد يجب أن تُفك أو تُكسّر؛ ولذلك فأنت لم تكن أنا، ويا ليتك تفهم أنّنا نحن سويًّا بني وطن واحد؛ فَلِمَ الفراق؟ ونحن بني آدم، فلِمَ لا نأخذ بأيدي بعضنا تقليدًا وارتقاء؟

وعليه:

فإن لم يحدث اللقاء والتفاهم والتفهّم تقليدا بين: (أنا) و(أنت) المختلفتين بمعطيات الخصوصيَّة فطرة وتقليدا فلا تستغرب أن يكون الصّدام هو سيّد الموقف، والانحدار هو السّبيل وإن كان غير مأمولٍ. ولكن إنْ أردنا الحلّ؛ فعلينا بالجلوس حول طاولة (نحن) التي تجمع شتاتنا، وتخلّصنا من ارتكاب المظالم، وتجنّبنا الألم المترتّب على المواجهة والخلاف، ومن ثمّ، يجب التفكير فيما نفكّر فيه قبل أن يحدث الألم.

ومع أنَّ التقليد يقود إلى الأخذ بما يتطابق مع الفطرة ارتقاء، فإنَّه في المقابل قد يؤدّي بأصحابه إلى ارتكاب أعمال المعصية التي حدثت ابتداعا من أبينا آدم، والذي من بعده أصبحت المعصيّة وكأنَّها من أعمال التقليد.

ومع أنَّ التقليد يثبّت العادة الحسنة، فإنَّه في الوقت ذاته يثبّت العادة السيّئة؛ ومن ثمّ توجد علاقة واضحة بين التقليد والتخيير، فأينما وجد التخيير وجد التقليد، وأينما وجد التسيير انعدم التقليد: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}[62]، فهنا يكمن التخيير والتقليد معا؛ حيث لا فجور ولا تقوى إلّا اختيارا وتقليدا؛ فمن أحسن الاختيار تقليدًا كانت نفسه على التقوى، ومن لم يحسن الاختيار تقليدًا يجد نفسه على الفجور ولا تقوى.

---

[62] الشمس: 7، 8.

ولسائل أن يسأل:

وما هي العلاقة بين الاختيار والتقليد؟

أقول:

الإرادة، التي لا اختيار إلّا بها، ولا تقليد إلّا بها؛ فهي متى ما كانت واعية بما يراد، كان الاختيار صائبا، ومتى كانت غير واعية بما يُراد فلا تكون إلّا خاطئة، ومن هنا وجب تصحيح المعلومة الخاطئة بالمعلومة الصّائبة.

ومع أنَّ التقليد لدى بعض الأفراد هو القبول بلا حُجّة، فإنَّه لدى بعضهم هو الأخذ بها؛ ولهذا أخذ الخَلف من السّلف كما أخذوا من الرّسُل، غير أنَّ الأخذ من الرُّسل هو أخذ تسليم بالمعجزات، أمَّا الأخذ عن غيرهم فأخذ عِبر ومواعظ؛ ولهذا فمحاجّة الرُّسُل آية ومن ورائها آيات، أمَّا محاجّات غيرهم فهي في دائرة الممكن براهين ومقدمات ونتائج تخضع للقياس.

ومن ثمَّ؛ فالتقليد هو عمل العقل ومسؤوليَّته؛ حيث لا تقليد إلّا به، سواء أكان عن تدبّر حسن أم سيئ؛ ولأنَّه من إعمال العقل؛ فهو من إبداعاته؛ ولأنَّه من إبداعاته؛ فهو المتجدّد مع كلّ جديد من أجل ما هو أكثر جدّة.

ولأنَّ التقليد من عمل العقل؛ فالعقل كما ابتدعه تقليدا؛ فهو قادر على الخروج عنه بما يخالفه تقليدا على التّمام؛ فعلى سبيل المثال:

بعد الطّوفان وسفينة نوح المعجزة، كان النَّاس أمَّة واحدة على الحقّ ولا مُخالف، ثمّ بعد حين من الدّهر، انحرف بعضهم عمَّا كان يسلك تقليدًا في مرضات الله؛ فضلّ من ضلّ، وبقي على الهداية من بقي، حتى بعث الله رُسُلا للأقوام الضّالة والأمم الضّالة؛ ليعيدوا النَّاس إلى فطرتهم ورشدهم تقليدا من بعده تقليد.

ومع أنَّ التقليد من أعمال العقل، فإنَّ بعض البشر لا يأخذ به إلّا عاطفة؛ ومن هنا يصبح الميل عنه متأثرًا بما هو غريزي؛ وذلك بعلّة تأمين الحاجات؛ حيث الأخذ بما يشبع الرّغبة والشّهوة (ولكلّ قاعدة شواذّ)، ومع ذلك فالعقل ارتقاء قادر على تنظيم العاطفة وإرشادها إلى ما يجب، ولكن انحدارًا العاطفة قادرة على جرّ العقل إلى ما يشبعها غريزة. وفي المقابل تظل الفطرة ثوابت لا تتأثر ولا تنقاد لغير ما هو طبيعي.

فالفطرة تتأثر بالخَلق وترتبط بالخالق، أمَّا الغريزة فتتأثر بالخُلق، وترتبط بالمخلوق؛ ولذا فالفطرة شاملة لما خُلق، وهي من طبيعة الخلائق، أمّا التقليد فهو المبتدع ممّن خُلق على صِبغة التذكّر والتدبّر والتفكّر؛ ولهذا فالفطرة لا تتغيّر ولا تتأثر بالعاطفة، وفي المقابل التقليد يتغيّر ويتأثر بالعاطفة، وكذلك الفطرة لا تكون إلّا على الإيجاب، والتقليد معرّض للسّلب والإيجاب؛ ومن ثمّ فالفطرة مصدر القوّة، أمّا العاطفة فمصدر الضّعف: (والإنسان مخيّر).

إذن: الفطرة هي خلق الشيء في الشيء ذاته، وهي ليست بخلق الشيء من ذات الشيء، كما هو حال النشوء المؤسّس على خلق الشيء من الشيء، فالفطرة مثل الهوية التي بها تُعيّر المعادن؛ حيث لا قيمة للشيء إلّا بما هو عليه من معيارية؛ ولذا فالفطرة هي الهويّة المميّزة للأجناس والأنواع خلقا.

والتقليد من زاوية الارتقاء، هو ما يُفعل ويترك أثرا موجبًا، ويؤخذ به من قبل من استحسنوه قولا أو فعلا أو عملًا أو سلوكًا، أمّا التقليد من زاوية الانحدار فهو شذوذ عن القاعدة التي ينبغي أن يكون عليها الارتقاء تقليدًا؛ ولذلك فالتقليد من اختيارات المخلوق، والفطرة من مشيئة الخالق، ولكلٍّ أثره.

ومن ثمّ؛ فالأخذ بالقيم والفضائل تقليدًا يخلق القدوة الحسنة التي تأخذ بالاقتداء والاعتزاز الذي يجعل للإنسان قيمة؛ فالأبناء أوّل من يقتدون به قدوة هم آباؤهم إن كانوا قدوة، ومدرسوهم إن كانوا قدوة، ثمّ ينضجون بحثا عن مكانة تليق بهم وفقا لما يأملونه ارتقاء؛ ولذلك فالقدوة الحسنة تترك أثرا طيبًا لدى الأجيال، في مقابل ما تتركه القدوة السيّئة من أثر غير حميد؛ فمن يقتدي بالقول والسّلوك والفعل والعمل الطيّب يجد نفسه مقتديا بما هو مرغوب فيه قيمة وفضيلة، ومن يقتدي بغير ذلك سيجد نفسه على غير قيم حميدة ولا فضائل خيّرة؛ فالقدوة الحسنة تبقى قدوة حتى وإنْ انتهى أصحابها؛ فالأنبياء كونهم قدوة حسنة أحياء (حجّة وعقيدة، وفعلًا وعملًا وسلوكًا)، وهكذا رجالات التاريخ وصنّاعه قدوة.

وعليه:

فالمربّي يكون قدوة حسنة متى ما نقل للنشء تجاربه الموجبة، وخبراته النّافعة، وقيم المهنة الرّاقية، وفضائل المجتمع الخيّرة، وفي المقابل قد يكون قدوة سالبة إذا لم يتطابق قوله وسلوكه وفعله وعمله مع أخلاق المهنة، وقيم المجتمع، وما ترتضيه الإنسانيَّة.

وهكذا المعلّم قدوة حسنة، متى ما نجح في حمْل المعلومة المتجدّدة ارتقاء، وكذلك الأم قدوة حسنة موجبة، متى ما نجحت ارتقاء في غرس مشاعر الأمومة في أبنائها، وفي المقابل تكون قدوة سيئة متى ما انحرفت منهجا وخُلقا وسلوكا، وكذلك الأب يظل قدوة حسنة متى ما غرس عاطفة الأبوة في أبنائه جنبًا إلى جنب مع قيم المجتمع المفضّلة، ويكون قدوة سلبية متى ما انحرف عمّا تفضّله الإنسانيَّة من قيم.

وبما أنَّ القدوة الحسنة حلقة وصل تربط الأجداد بالأحفاد، إذن: فتواصل الأجيال يتطلّب القدوة، وتواصل الحاضر مع الماضي يتطلّب الذّاكرة، وهكذا تواصل الحاضر مع المستقبل يتطلّب الأمل.

مرحلة توليد الفكرة:

تعد الفكرة التي هي من إعمال العقل، استمدادًا لشيء مجرّد من الشيء المشاهد أو الملاحظ، كما هو استمداد القوانين من المعطيات الكونية والطبيعيَّة؛ ولأنَّها مولود العقل؛ فهي متى ما وُلدت فيه، ولدت منه رؤية لشيء قابل للتحقّق بين أيدي النَّاس، وهي لا

تكون كذلك إلّا بتلاقح الآراء (سالبها وموجبها)، وكلّما كثرت المستفزّات الخَلقيّة والخُلقيّة أثارت العقل انتباها لما يجب؛ فتدفعه حيويّة الحيرة تجاه التخلّص من العَتَمة التي تَحول بين المحيّر والمأمول.

ومع أنّ الفكرة تخلّص من الحيرة، فإنَّها لا تكون ارتقاء إلّا من بعدها؛ فالحيرة بالنّسبة للفكرة تعد مخاض ولادة، وولادة الفكرة من دون حيرة تسبقها، ولادة قسرية؛ فلا يمكن أن يتطابق الزّمن الافتراضي لولادتها مع زمن قسريتها، فتولد مشوّهة، وبالتالي ستكون الحلول أو المعالجات أو الإصلاحات المترتّبة عليها منقوصة، أو منحرفة تجاه المخالف للمأمول ارتقاء.

ومع أنَّ هذا الأمر يعدّ سالبًا بالنّسبة إلى الفكرة ارتقاء، فإنَّه الأمر المحيّر والمستفزّ لعقول الآخرين إيجابا؛ ممّا يحفّزهم ويدفعهم إلى الالتفات تجاه المحيّر، حتى تلد الحيرة فكرة تخرج من التأزّم.

ومع أنَّ زمن الحيرة الفكريَّة مُقلق لمن ألمت به وألمّ بها، فإنَّه المخاض الذي ينذر بولادة ما يسرّ العقل والنّفس، وما يسرّ الغير ارتقاء؛ ولذلك فالبحوث العلميَّة ارتقاء تسبقها الحيرة المؤدّية إلى ولادة الجديد المحفّز على حيرة جديدة من بعدها حيرات تُمكّن من إضافة ما هو أفيد وأنفع.

إذن: فلا داعي للقلق من الحيرة؛ فقلق الحيرة يُمكّن من الإلمام بالمحيّر حتى يُقتنص له حلٌّ، ومن لا حيرة تستفزّه؛ فعليه أن يفكّر في

الشيء استحالة أو إعجازًا أو ممكنًا حتى يقتنص حيرة بها يقتنص فكرة تلد له حلًّا.

وهذا لا يعني: أن تكون الحيرة غاية في ذاتها، بل الغاية من ورائها حلٌّ، ولكن هذا الأمر يتطلّب مقدرة على تحدي المقلق بما يُقلقه، حتى يصبح القلق بولادة الفكرة في خبر كان؛ فأهل العلم والبحث العلمي لا يمكن أن يصلوا إلى غاية الارتقاء إلّا بعد الحيرة، ومن لا يقبل الجلوس مع الحيرة تحدّ فلا إمكانيَّة لأن يُكتب له التحدّي في ميادين العلم والمعرفة المصنّفة.

ولسائل أن يسأل:

هل الفكرة والحيرة ولدتا مع مولد آدم، أم إنّهما اللاحقتان عليه؟

بالنّسبة إلى آدم لم يكن مولودا، بل مخلوقا خلقا مباشرا بلا أب ولا أم؛ ولهذا ما وجد عليه، فهو المخلوق معه خلقا، ولكن كلّ شيء في بنيه خُلق فيهم سلالة من نطفة، فآدم خُلق في أحسن تقويم، وهذا يدلّ على أنّه معدّ للحياة لحظة خَلقه، أمّا بنوه من بعده فحالهم حال الولادة والنّمو والتعلّم والتعليم، أي: حلهم حال من لا يستطيع أن يفكّر لحظة الولادة، ولكن في دائرة الممكن يبلغ ذلك تعلّما وتعليما.

فآدم كانت علاقته بالخالق والمخلوقات من حوله علاقة فطرة مباشرة، ولكن المحيّر بالنّسبة إلى آدم هو حياته في كونين مختلفين على

التّمام، كون الارتقاء: (الجنّة) وكون الدّنيا: (الأرض)، فهو بعد أن كسب الجولة خَلقا، خسرها خُلقا؛ وذلك بعد أن أهبط به بسبب المعصية التي ارتكبها، ومن هنا، بدأ يفكّر كيف يمكنه الارتقاء ثانية من الحياة الدّنيا إلى تلك الحياة العليا؟ في ذلك اليوم وُلدت الحيرة، أي: وُلدت الحيرة إنذارا بولادة الفكرة؛ فكان الاستغفار والتوبة نتيجة الفكرة التي أخرجت آدم من حيرته إلى ما يُمكّنه من بلوغ الارتقاء إلى تلك الجنَّة التي أهبط منها، وهي الحيرة ذاتها التي ألمت بابنه في لحظة قتله أخاه، ولكنَّه وقف قاصرًا عن المعرفة؛ حيث لا فكرة له عمَّا جرى بيديه؛ فبعث الله غرابًا؛ ليريه سلوكًا وعملًا يمكّنه من المعرفة بلا فكرة من عنده.

ولهذا فالفكرة ينتجها العقل، وتأخذها العقول، وتوظفها فيما يمكن أن يوظّف ويفيد.

وعليه:

لقد استلهم آدم الفكرة من أمورٍ:

الأمر الأوّل: من طبيعة الفطرة: التي خُلق عليها واصطبغ بها وجوده في أحسن تقويم، ولكن لأنَّه خُلق على التسيير والتخيير فكان للتسيير الطبيعة الخَلقية، وكان للتخيير فسحة الإرادة التي مكّنت آدم من الأكل من تلك الشّجرة المنهي الأكل منها؛ فخالف أمر النّهي معصية؛ بأسباب قصور معرفته أمام كمال الخالق وإحاطته؛ ذلك لأنَّ

آدم وبنيه لا يعلمون إلّا ما يُعلّم، ومن هنا كان الإنباء لآدم مصدر المعرفة ومكمن الفكرة ارتقاء.

ولهذا فالفطرة التي فُطرت المخلوقات عليها هي التي جعلت لكلّ زوجين خصوصيَّة، دفعتهما تجاه بعضهما، وهي ذاتها التي حالت بينهما والأزواج الأخرى إلّا بما يفيد، فكانت حياة الفطرة ميسّرة لكلّ الأنواع تيسير جاذبية نوعيّة، وغريزية؛ ومع ذلك ظلَّ الإنسان مهيأ لما هو أعظم؛ فكان عقله مقلّدا لما يراه في دائرة الممكن تخييرا.

الأمر الثاني: التقليد: وهو الذي لا يكون إلّا عن عقلّ، ولكن القصور على التقليد لا يمكّن من توليد الفكرة؛ ذلك لأنَّه لم يمرّ بزمن الحيرة الممكن من التعمّق في التفكير حتى كشف اللثام عن الحقيقة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، فآدم تقليدا قلّد إبليس؛ فأكل من المنهي عنه، وكذلك ابنه قلّد الغراب؛ فعرف كيف يواري سوءة أخيه، وهكذا هي الحياة تطوّرا من الخَلق، إلى الفطرة، إلى التقليد، إلى توليد الفكرة، التي توليدها لا ينقطع فكرة من بعد فكرة. ولكن يظل التقليد قاصرا، والفكرة في حيّز العقل مهما عظمت، فهي لا تخرج عن دائرة الممكن؛ ولهذا بعث الله الأنبياء والرّسل بالنبأ العظيم مبشّرين ومحرّضين ومنذرين وداعين للتفكير ارتقاء.

الأمر الثالث: النبأ العظيم: مع أنَّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه لم يُخلق على الكمال؛ ولهذا فتفكيره لا يمكن أن يخرج عن

حيّز دائرة الممكن؛ فكان الإنباء بما يجب من الخالق إلى المخلوق يمكّن المخلوق من الوقوف على المعجِز، ومعرفة المستحيل مستحيلًا؛ فأنزلت الأحكام المنظمّة للعلاقات بأسباب الاختلاف والخلاف الذي حدث على الأرض الدّنيا، معصية واقتتالا؛ ليفتح آفاق التفكير فيما يجب أن يؤخذ، وما يجب أن يُجتنب، وما يجب أن يُنتهى عنه.

ومن ثمَّ؛ تعد الفكرة هي الأمر الرّابع الممكّن من المعرفة والبحث في دائرة الممكن، وهذا لا يعني: أنَّ الإنسان قبل ذلك لا يمتلك الفكرة، بل قبل ذلك كانت حياة الفطرة هي السّائدة، ثمّ حياة التقليد، ثمّ من بعدها حياة الإنباء الذي جاء تنزيلا على الأنبياء والرُّسُل عليهم السّلام، بهدف تقييم الأخطاء، وتقويم السّلوك والعمل، الذي ولّد الفكرة، وولّد منها أفكارًا.

فالفكرة إنتاج العقل وإعماله، وهي بالنّسبة إلى من تولّدت في عقله مثل البذرة، أو النّواة التي يراها المفكّر مخزّنة في محفظة ذاكرته وكأنّها الشّجرة متكاملة، جذورًا وجذعًا وأغصانًا وأوراقًا وثمارًا؛ فهو يراها على هيئة الصّورة قبل أن تتجسّد في الشّكل والصّورة. ومن هنا، يكون مولود الفكرة هو الإبداع الذي يُسهم في إضافة الجديد النّافع ارتقاء.

ولهذا؛ فالفكرة في ذاتها مجرّدة؛ إذ لا هيئة لها إلّا في ذهن المفكّر الذي نضجت في عقله مثلما تنضج النّواة من تربتها شجرة متكاملة، ولذا فالهيئة تكون للصّورة التي أساسها فكرة، ومن ثمّ

فالفكرة ترتبط بالمشاهد والملاحظ مثلما ترتبط بالمجرّد، والفكرة متى ما تكون نتاج تذكّرٍ، يكون التفكّر هو المهيئ لاصطيادها، أمَّا التدبّر؛ فلا يكون إلّا نتاجها سلوكا وعملا.

والفكرة وإن كانت مجرّدة في الذّهن، لكنَّها على أرض الواقع تتجسّد في المشاهد والملاحظ، سواء أكانت معرفة قيم وفضائل ونظم وقوانين، أم إنَّها معرفة ملموسة ماديًّا، ومن هنا، كانت هيئة الخلق سابقة على صورته مخلوقا، وهيئة المصنوع سابقة على وجوده مصنوعًا.

ومن ثمّ؛ فالفكرة متلازمة مع التكاثر تكاثرا، فمع أنَّها لم تكن مخلوقة، فإنَّها تتخلّق في عقل الإنسان تدبّرًا من بعده تدبّر، وإنتاجًا من بعده إنتاج؛ فهي القوّة الموجدة لما لم يوجد من قَبل، وهي وإن لم تتطابق مع خلق الشيء من لا شيء، لكنَّها تتماثل معه من حيث إيجاد الشيء من الشيء نشوءا، فالإنسان الذي خُلق نشوءًا زوجيًّا، كان وجوده وفقًا لقانون الفطرة والتقليد، ولكنَّه من بعد ذلك إنباء استطاع أن يتبيّن مكامن الحقيقة، التي لفتته إلى نفسه ومَن حوله، فاستكشف علاقات قابلة لأن تتطوّر ارتقاء، فاستفزّت عقله يقظة زوّدته بالمعرفة الممكّنة من البناء والإعمار وتحدّي الصّعاب التي تواجهه كلّ يوم.

وكما أنَّ الحيرة يقظة عقلية تستوجب مواجهة القلق بما يُقلقه؛ فكذلك الصّعب يعدّ معطية مثيرة للعقل ومستفّزة لملكاته، التي تتحفّز

إلى المواجهة معه متى ما اعترض طريقها، ومن هنا، بدأت مواجهة العقل للصّعب تحدٍّ من ورائه تحدٍّ، وفي المقابل الصّعب يقدِّم التنازل من بعد التنازل.

فالصّعب ليس بالمستحيل ولا المعجز، حتى يستحال تحدّيه، بل ميادين تحدي الصّعب فسيحة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، ولا خوف من مواجهة الصّعب، بل الخوف ألا تحدث المواجهة معه، فالمواجهة العقلية معه كلّما حدثت عن تدبّر فكرة، أنتج العقل فكرة أكثر ارتقاء؛ ولذا ستظل الفكرة عقلية إلى حين استخراجها فيما يمكن أن يكون على الشّكل أو الصّورة، أو المفهوم والدّلالة والمعنى، والذي يتجسّد في العمل والسلوك.

ومع أنَّ العقل مكمن الفكرة، فإنَّه أيضًا منبع الأمل، ومع أنَّهما معا من إعمال العقل وفي محفظته، فإنَّ الأمل يتعلّق بالغايات الخارجية، التي في دائرة الممكن لا تُبلغ إلّا تخييرا وإرادة؛ فمن يمتلك الإرادة يستطيع الاختيار الممكن من التدبّر وحمْل المسؤوليَّة، ومن لا يمتلكها، فإشارة (قف) لا تسمح له بالعبور إلى ضفاف الارتقاء؛ ولذلك وراء كلّ غاية فكرة، ولكن أيَّةُ فكرة؟

هل هي فكرة فكّ القيد؟ أم أنَّها فكرة وضعه؟

أقول: القيد مولود الفكرة، فلو لم تكن الفكرة ما كان القيد، فالإنسان عندما لا يستطيع ضبط نفسه عن إرادة يجد نفسه يفكّر والحيرة تملؤه حتى يجد قيدا لضبطه، وبعد أن يُقيّد بما أوجده من قيد

من قِبل الغير، يبدأ يبحث تفكرا في كيفية فكّه وبكلّ ما يتيسّر له حيلة.

ولذا فمن يريد أن يكون إنسانًا في أحسن تقويم فعليه أن يتمسّك بعقله الذي به يتميّز عن غيره، وإذا أرد الحريَّة فعليه أن يقبل التنازل عن عقله؛ كي يستطيع في دائرة الممكن أن يفعل ما يشاء متى ما يريد، ولكنَّه نهاية سيعرف أنَّ للحرّيَّة ثمنًا، وهكذا إذا أرد الاثنين معًا فعليه أن يقبل بحياة المساجين الأحرار التي يشار إليها بالقضيَّة:

(كل أ ليست أ)

فنحن بني آدم لولا العقل وما نفكّر فيه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولا المحلّل والمجرّم، ولولا العقل والفكرة ما استعملنا كلمتي: (قف، وسر)، ولا كلمتي: (لا، ونعم)؛ ومن ثمَّ فإن لم يقيّد الإنسان نفسه عقلًا، سيجد نفسه مقيّدا من قِبل الغير، بفكرة القيد التي أنتجها عقله، ومع أنَّ السّجن هو السّجن فإنَّ الإنسان تدبّرًا إن وَضع نفسه في قيد عقله، فهو على الأقل أصبح يمتلك الإرادة، ولكن إن وُضع القيد في يديه كرها فهل يمكن له أن يكون على شيء من الإرادة؟

ومن ثمَّ؛ فإذا سلّمنا أنّ العقل هو الذي يقيِّد نفسه، ألا نسلّم بأنَّه قادر على فكّ قيده عن نفسه ارتقاء؟

لا شكّ أنَّه سيكون قادرًا إذا قبل التوقّف عند حدوده، وعدم التمدّد على حساب حدود الغير، ولكن إن تمّدّد فسيجد نفسه سجين تلك الفكرة التي أنتجها قيدا.

ولهذا فالإنسان الأوّل الذي خُلق على الزّوجيَّة، عاش حياة الفطرة جنّة إلى أن عصى ربّه؛ فأهبط به والأرض أرضًا؛ فظلَّ من بعد الهبوط على أمل العودة إلى تلك الجنّة، وظلّ بنوه من بعده، يسعون ويعملون كلّ ما من شأنه أن يرتقي بهم إلى المأمول غاية؛ فتولّد التفكير في عقولهم، فكرة من بعدها فكرة؛ فأنتجوا الثّقافات، وبنوا الحضارات، ومع ذلك فهم يعلمون أنَّهم كلّما أنتجوا فكرة واجهتهم صعاب تستوجب المزيد من إنتاج الفكرة؛ ولذلك فهم قبلوا التحدّي والصّعاب كلّ يوم تهزم صعوبة من بعد صعوبة.

ولذلك فمرحلة الفكرة جعلت الإنسان على المعرفة الممكِّنة من كشف العلاقة بين الخَلق والنّشوء والإعجاز والارتقاء، وفتحت أمامه آفاق البحث العلمي الممكّن من صناعة المستقبل وتجاوزه ارتقاء.

ومع أنَّ الفكرة مولود العقل، فإنَّ مستفزّها خارجية: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[63]؛ ولذلك فالفكرة لا تستمدّ من العالم الخارجي كما كان يراها أرسطو،

[63] الغاشية: 17 . 21.

بل العالم الخارجي هو مصدر استفزازها؛ فيخرجها من الكمون إلى حيّز الوجود وكأنّها تُعبث من العدم.

فالفكرة في ذاتها مجرّدة، ولكن في مفهومها ومضمونها تحمل رسالة، أو مشروعا، أو رؤية، أو حلّا يمكّن من فكّ التأزّمات، والإقدام على ما يمكّن من الارتقاء، فالفكرة لم تكن خاطرة عابرة تأتي هكذا وتذهب وكأنّها لم تأت، بل الفكرة كما تستمدّ من السّابق، فهي تضيف الجديد، ثمّ تفتح آفاق الارتقاء مع المستقبل.

ولهذا فالفكرة تمكّن من استخراج المجهول من المعلوم، أي: تستكشف المعلوم وتخرج المجهول منه، فيصبح معلوما وليس مخلوقا، فالفكرة تستنبط وتستمدّ من المخلوق شيئا لا ينقص من المخلوق شيئا، وفي المقابل تزداد المعارف أشياء مستكشفة.

والفكرة لم تولد في الخارج، بل الخارج يستفّز العقل ويُلفته إلى ما يُمكِن أن يُستكشف، فيبدأ العقل إعماله تجاه المستفزّ والحيرة تلازمه حتى يبلغه، وحينها لا تجد الحيرة مكانا لها عند المستكشف معرفة، أي: لا يمكن أن تبقى الحيرة مع التجلّي المعرفي، بل هي تبقى مع بقاء اللبس والغموض، وفي المقابل تزول بزوالهما.

والفكرة تعد صوغًا عقليًّا لمولودٍ لم يولد بعد، وهو بعد الولادة لن يكون فكرة، بل شيئا غيرها، ولكنَّه المؤسّس عليها؛ فلو لم تكن ما كان؛ ولهذا فالفكرة هي استنباط الشيء من الشيء، بعد تهيّئه على الشّكل أو الصّورة أو الرّسالة والموضوع، ممّا يجعل المستنبط في

صورة موضوع عام؛ حيث لا تفصيل، فالتفصيل لا يكون إلّا للموضوع الذي تمدّدت الفكرة فيه بداية ونهاية، والفكرة هي الفكرة، والموضوع ارتقاء لا يكون إلّا المفسّر للفكرة إيضاحا.

فبعد أن تطوّر الإنسان من حياة الفطرة والتقليد إلى حياة الإنباء والفكرة، أصبح يُبدع استكشافا، وليس خَلقا؛ ذلك لأنَّ المخلوق لا يَخلق، ولكنَّه في دائرة الممكن يكتشف المخلوقات، ثمّ يكتشف منها أسرارا كانت مجهولة؛ فيكتشفها بحثًا، وتأملًا، واستنباطًا، واستقراءً، ثمّ يوظّفها بما يعود عليه بالمنفعة، وهكذا هي الحياة والإنسان فيها يتطوّر بالفكرة، ومع ذلك لم يكن التفكير كلّه مؤسّسا على استنباط الفكرة ارتقاء، بل هناك من الفكرة ما يؤدّي إلى السُّفليَّة والانحدار.

ومع أنَّ الفكرة تولد في العقل البشري بداية بمستفزّات خارجية، فإنَّها بعد أن تولد منه إنتاجا، تصبح وفقا للقدرة قابلة للانتقال من عقلٍ إلى عقلٍ مع وافر التأثير، سواء أكان تأثيرًا موجبًا، أم سالبًا، وعندما تكون الفكرة بنائية، تدفع المتلقِّين لها إلى الارتقاء، ولكن إن كانت هدّامة فستدفع بمتلقيها إلى ارتكاب الأعمال الدونيَّة؛ ومع ذلك فالعيب لا يلاحق الفكرة، بل العيب يلاحق من كان من ورائها: (من أوجدها)؛ الذي فكّر فيما يضرّ في الوقت الذي ينبغي أن يفكّر فيه فيما يفيد وينفع، وهنا تكمن العلّة، أي: تكمن العلّة في أصحاب الفكرة الهدّامة سواء الذين أنتجوها، أم أولئك الذين سوّقوا لها ووظّفوها.

ومع أنَّ الفكرة في دائرة الممكن (بنائية أو هدمية)، فإنَّها بين هذا وذاك، يمكن أن تكون (إصلاحيّة)، وهذا يعني: أنَّ الفكرة البنّاءة تصحّح أخطاء الفكرة الهدَّامة متى ما كان الحوار والجدل بين النَّاس موضعيًّا، ولا إمكانيَّة أن تكون الغلبة للفكرة الهدّامة كلّما ساد الحوار والجدل منطقًا: (حُجّة بحجّة)؛ ولذلك فالمعلومة الصّائبة تصحّح المعلومة الخاطئة كلّما طرأت؛ ذلك لأنَّ أثر الفكرة اليائسة يصحّح أو يعالج بالفكرة المملؤة أملا؛ فالفكرة الأمل تحفّز على البقاء المرضي، وتدفع تجاه المستقبل الأكثر إرضاء.

والفكرة كونها مجرّدة فلا علاقة لها بالاقتناع من عدمه؛ فالاقتناع من عدمه مسؤوليَّة من ينتج الفكرة، أو يتبنّاها، أو يأخذ بها من صاحبها أو متبنيها؛ فالعقل السّليم في معظم الأحيان يأخذ بأحسن الفكرة، والعقل العليل في معظم الأحيان يأخذ بأسوائها، ومع ذلك فللفكرة الحسنة مسوّقين، وللفكرة السّيئة مسوّقين، ومتى كان المسوّق على مقدرة إقناعية راجت فكرته حتى وإن كانت هدمية، وإن لم يكن له مقدرة إقناعية انكمشت فكرته وإن كانت بنائية، وهذه العلاقة هي بالتّمام علاقة بين من يسعى إلى الارتقاء، ومن يسعى للدونيَّة والسُّفليَّة، أي: فمن أراد ارتقاء فعليه أن يأخذ بفكرة الارتقاء نهضة وتقدّما، أمَّا من أراد سُفليَّة فأفكارها في الأسواق الهدّامة كثيرة.

ولذلك، تعد الفكرة ارتقاء مصدرا للرّؤية البنائيَّة، سواء أكانت رؤية فكريّة (تتعلّق بالنّظم والقوانين ورسم السياسات، وما يؤدّي إلى

الإصلاح وبلوغ الحلّ) أم إنّها كانت عملية (تتعلّق بالاقتصاد والتجربة والبناء والإعمار)؛ فالفكرة سواء أكانت نظريَّة أم عمليَّة، تخلق جدلًا بين منظِّر، ومسوّق، ومؤيّد، ومعارض، وتابعين مختلفين.

وعليه:

الفكرة حرّة، لا تُسجن وإن سُجن أصحابها ومسوّقوها، إنّها مولود العقل الذي فكّر في إيجاد كيفية تسمح له بالتمدّد داخل حدوده أو خارجها على حساب الغير، ثمّ من بعدها فكّر فيما يخالفها غاية؛ فأوجد كيفية تكبح السّلوك وتقيّده متى ما تمدّد على حساب الغير؛ ذلك لأنَّ الفكرة من طبيعتها التمدّد بين العقول، كما تمدّدت ارتقاء من النّظر إلى الخَلق، إلى البحث عمّا يُمكّن من معرفة الكيفيَّة التي هو عليها، وذلك بغاية البحث ارتقاء عمّا يمكّن من معرفة المشاهد (هو كما هو)، ويمكّن من معرفة المعجز (آية بعد آية)، ثمّ يمكّن من بلوغ معرفة المستحيل مستحيلًا، وهكذا هي الفكرة تتمدّد بين أيدينا ارتقاء.

فنحن بني آدم عرفنا أنّ الشيء في أساس خلقه قد خُلق من غير موجود، وعرفنا أنّ بلوغ المستحيل مستحيل، وعرفنا نشوء الشيء من الشيء معجزة، وعرفنا أنّنا نعرف ما عرفنا ارتقاء، ثمّ عرفنا أنّنا في حاجة لمعرفة المزيد.

ومن ثمّ؛ فالفكرة لا تخلق الشّيء، ولكنّها تستكشفه، ولا علاقة لها بالخَلق؛ فالخَلق لم يكن من الفكرة، ولا من المفكّر. الخَلق

من العلم، وبالأمر (كن)، ومن هنا؛ فالخالق لا يفكّر، بل الخالق يعلم كلّ شيء، وفي المقابل الذي يفكّر هو الذي لا يعلم؛ ولهذا يفكّر ويبحث بغاية أن يعلم.

والفكرة كمفردة تتشعّب فكرا، فتتمدّد في شؤون الموضوع الذي يحملها في أثنائه فروعًا؛ فهي مثل النّواة التي تغرس في التّربة والمناخ المناسبين لها؛ فتنمو شجرة ضاربة في الأرض وجذعها إلى السّماء فروع متفرّعة، أي: تتفرّع الفكرة الواحدة فكرًا متعددة التفاصيل حتى يكتمل الموضوع رسالة أو رؤية. بمعنى: تتعدد الفِكَر المتفرّعة من الفكرة بما يمكّن من استيعاب الموضوع فِكَرا مفصّلة.

وتعد الفكرة قاعدة التنظير، فلسفة وسياسة واقتصادًا واجتماعًا، أمّا الدين فلا تنظير فيه؛ فهو لا يكون إلّا من خالق؛ ذلك لأنّ الدّين لم يبن على الفكرة، مع أنّ الفِكَر الثّمينة لا تستمدّ إلّا منه، أي: كلّ شيء يؤسّس على الفِكَر، لا يكون إلّا من مفكّر، والدّين ليس كذلك؛ ولهذا فلا فكر ديني كما يعتقد بعض النَّاس، بل الدّين لا يكون إلّا علم من عليم؛ ولهذا فهو لا يستند على الفكرة، بل يستند على المعجزة، التي تتنزّل إنباء، ورسالة تنسب لخالقٍ، ولا تنسب لمفكر.

مرحلة تطوّر الفِكَر:

تعد الفِكَر من إنتاج العقل؛ ويعدّ الفِكْر من إعماله؛ ولأنَّ الفِكَر هي مجموع الفكرة؛ فهي على الكثرة التي في حاجة لأن تصنّف

بين ما يؤدّي إلى الارتقاء، وما يؤدّي إلى الانحدار؛ ذلك لأنَّ الإنسان سواء أكان هو مصدر الفكرة، أم متلقيها هو المخيّر قبولًا، أو رفضًا، أو حيادًا.

ولأنَّ الإنسان مخيّر، فيما هو ليس بمستحيلٍ؛ فهو يفكّر كما يشاء، دون أن يتجاوز الحقائق والشّواهد الدّالة على الوجود، سواء أكان وجودا مستحيلًا، أم معجزا أم ممكنا، فالإنسان لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من تطوير فِكْره، بغاية تنشيط إعمال فكره؛ ليكون عقله متهيأ ومتأهبا للاستنباط من المجرد والمعجز، والاستقراء من المشاهد والملاحظ، وهذه من صفات العقل المتدبّر أمره، كما أنّه لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من تطوير فِكَره (مجموع الفكرة) أي: لا ينبغي أن يتوقّف عند حدود إنتاج الفكرة، بل ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى ما يمكّنه من تطوير الفكرة بالفكرة حتى يبلغ تطوير ما بلغه من فِكَر؛ ولهذا فالفِكْر هو إعمال العقل، أما الفِكَر فهي إنتاج العقل.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على التّسيير فيما لا طاقة له به، فإنَّه كذلك خُلق على التخيير فيما لا تسيير فيه، فهو بالنّسبة إلى المستحيل والمعجز مسيّر، أمَّا بالنّسبة لدائرة الممكن فهو مخيّر بين متوقَّع وغير متوقَّع وفقًا للإرادة والمقدرة.

فبمرور الزّمن كان التكاثر البشري بين اختلاف وخلاف حتى أصبحت الهوة بين النَّاس تتسع صداما ونزاعا واقتتالا؛ فبعث الله الأنبياء والرُّسُل مبشّرين، ومنذرين، ومحرّضين، وداعين للكلمة السّواء؛

ومع ذلك كفر من كفر، وأشرك من أشرك، وآمن من آمن، ومن هنا، اتخذ الاختلاف والخلاف أوجهًا جديدة بين من يؤمن بالله، ومن يكفر به أو يشرك، حتى وُصف هذا الصّراع بأنّه الصراع بين: (الخير والشّر).

ولسائل أن يسأل:

ومن الذي بذر بذرة الخلاف والاختلاف؟

أقول: بذرة الاختلاف بذرة خَلق، خُلق الإنسان عليها؛ فكانت من فطرته وفقا لمشيئة الرّب: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَّنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[64].

ولأنَّ الرّب جعل النَّاس مختلفين خَلقا فهو بلا شكّ يريدهم على الاختلاف بقاء إلى النّهاية؛ ولذلك سيظلون على الاختلاف حتى النّهاية، ولا إمكانيَّة لتبديل خلق الله: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}[65].

ولأنَّ النَّاس مجبولون على الاختلاف فطرة، فهل الرّبّ يجعل خلقه على ما يسيء لِفطرة صُنعهِ؟

أقول:

---

[64] هود: 118، 119.

[65] الرّوم: 30.

لو أنَّ الله خلق النَّاس بلا اختلاف، لكانوا على الكمال، وهذه من صفة الله وحده، أي: لو لم يُخلقوا على الاختلاف ما كان أحد في حاجة للآخر، ولولا الاختلاف ما كان التنوّع مغريا، ولو لم يكونوا مختلفين ما كان للأمومة معنى، وللأبوة معنى، ولا للأخوة والعمومة والغير معنى، وهكذا، ليس الذّكر كالأنثى؛ ولأنَّهما كذلك كان للمودّة دلالة ومعنى، ولهذا كان الاختلاف بين النَّاس رحمة؛ فينبغي أن يسود بينهم رحمة.

إذن: لو لم يكن الاختلاف فطرة بين النَّاس ما كان العقل متدبّرًا؛ فالاختلاف خلقا هو أساس الوحدة بين النَّاس، وأساس التذكّر والتدبّر والتفكّر، أي: لو لم يكن النَّاس مختلفين لكانوا آحادًا، وليسوا أزواجًا، وجماعات، وشعوبًا.

ولهذا؛ فلاختلاف ارتقاء لا تضاد فيه؛ لكونه الاعتراف بالخصوصيَّة (أنا وأنت)؛ فاللون الأسود لا يكون ضدّ اللون الأبيض، وما الاختلاف بين الألوان إلّا زيادة الجمال جمالا؛ فالألوان مع أنّها تتعدد جمالا، فإنَّها عندما تُنسج بساطا تلاحظ أنّها أرقى بكثير عمّا كانت عليه قبل أن تُنسج في وحدة من الجمال.

والإنسان لكونه خُلق في أحسن تقويم؛ فهو من دون شكّ إنسان واحد، ولكنَّه لم يكن نوعًا واحدًا (ذكرا وأنثى)، ولم تكن قدراته وظروفه ومعارفه متساوية؛ فالاختلاف تنوّع ألوان، وأشكال، وآراء، ومعارف؛ ومع ذلك فالتّشابه والتّماثل ارتقاء لا ينقطع؛ فالنَّاس من

بعد الرّسل لو شاء الله ما اقتتلوا؛ ولكن لأنَّهم خُلقوا على الاختلاف، اختلفوا ثمّ تخالفوا على ما جاءت به الرّسل؛ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ ارتقاء، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ سُفليَّة. ولو لم يختلف النَّاس بما اختلفوا به لكانت الحياة ذات وجه واحد، وطعم واحد، ولون واحد، ورؤية واحدة، وهذا الأمر يجعل الحياة مُملّة وكأنّها بلا مستفزّات، وبلا مغريات، وبلا طموحات، وبلا منافسة، وبلا أمل: (حياة لا تشدّ الرّغبة إليها).

أمَّا الخلاف فيسود بين النَّاس عندما يرى كلّ طرف منهم أنَّه صاحب الحقّ الوافر، وغيره لا حقّ له، أو ليس له إلّا حقٌّ منقوصٌ؛ فتُرفع الأصوات على الأصوات وكأنّ الأطراف المتخاصمة لا تعرف أنّ الحقّ دائما أعلى من أيّ صوت؛ ولأنَّه كذلك فلا داعي لرفعه؛ ولذا فاترك الحقّ يعلو ارتقاء على كلّ شيء بما فيه صوتك، وإن كان خصمك على حقّ فلا ترفع صوتك عليه، وإن رفعته فلا تستغرب أن يأتي اليوم الذي تُلجمك فيه الحُجّة، ويكون صوته بين النَّاس وعلى الملأ أكثر منك حجّة وارتقاء.

ومن ثمّ؛ فالخلاف لا يكون إلّا بما تعمل أيدي النَّاس، أمّا الاختلاف فالنَّاس مفطورون عليه خَلقا: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}[66]؛ ولذلك فالاختلاف رحمة، أمَّا الخلاف فنقمة، لا ينبغي الالتجاء إليه إلّا من أجل ما يرسّخ قيمة الإنسان وكرامته وسلامة حياته ومعتقده وحرّيَّته.

---

[66] الروم: 30.

ومن ثمَّ؛ فالخلاف مع المخالف لما يجب يعدّ ارتقاء، والخلاف معه على ما لا يجب يعدُّ انحدارًا؛ فالإنسان مع أنّه خُلق في أحسن تقويم إلّا أنَّه إذا لم يفكّر فيما يفكِّر فيه قبل أن يحدث، قد يجد نفسه في دائرة الممكن في مواجهة مع غير المتوقَّع؛ ومع ذلك ليس له بدّ إلّا أن يفكّر حتى يعرف من جديد كيف يفكّر ارتقاء، وإلّا ليس له إلّا الانحدار الذي تكمن فيه معطيات الألم.

فالتفكير ارتقاء يُحدث النُّقلة المأمولة تقدُّما، وما دونه تكون الفكرة غير فاعلة، والتفكير غير مُفعَّل.

ولأنَّ العلاقة متداخلة بين التفكير والفكرة؛ فمن الصّعوبة تناول أحدهما بمنعزلٍ عن الآخر؛ فالتفكير يولِّد الفكرة التي متى ما كانت راقية أضافت معارف جديدة نافعة، ومتى ما كانت على غير ذلك تؤدّي إلى ما يترتّب عليه ألما.

ولذا؛ فمن لا يفكّر في مستقبله مع المختلفين عنه، لا يمكن له أن يسعى لتأمينه، ومن لم يفكّر في صناعة مستقبل أفضل، لن يجد لنفسه مكانة يتبوّؤها بين النَّاس، ولن يكون له مستقبل مقدّر، بل قد يجد نفسه على الرّصيف متسوّلًا، أو سجينًا بين الجدران بأسباب فقدانه مشبعات الحاجة المتطوّرة، وعدم معرفته كيف يفكّر تعاونًا مع المختلفين، فينبغي أن يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر،

وعليه ألا يغفل عن اختلاف الغير عنه، وأن يعلم أنَّه مثلما هو مخيّر هم مخيّرون: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[67].

وبما أنَّ الإنسان قد خُلق مخيّرا؛ فلا استغراب من الاختلاف، بل الاستغراب ألا يكون مختلفًا، فالنَّاس بطبيعتهم يرضون عن تخييرهم، ولكن بعض النَّاس تضيق صدورهم من الاختلاف، وهنا تكمن العلّة التي لا تتمشّى مع الفطرة التي خُلق الإنسان عليها مخيّرًا بين اختلاف وخلاف، وهكذا هي الحياة جدل من بعده جدل.

تطوّر الفِكَر جدلًا وحُجَّة:

مع أنَّ الإنسان خُلق من طين، فإنَّه خُلق معدًّا للتفكير؛ فكانت الفكرة نتاج عقله ومن إعماله، وأوَّل فكرة كانت هي من عقل أوَّل من خُلق في أحسن تقويم (آدم)، ثمّ تعددت الفِكَر بتعدد البشريَّة وبتعدد ما تفكّر فيه؛ ولهذا أصبحت فِكَرا بعد أن كانت فكرة، أي: في هذا المسار الأمر يتعلّق بالفكرة التي أصبحت بتكاثرها فِكَرًا، ولكن هذا لا يعني أنَّ الأمر لا يتعلّق بالفِكْرِ الذي هو مكمن التفكير؛ فالفِكْرُ من معطيات العقل، وفي المقابل الفكرة لا تكون إلّا من التفكير وإنتاج العقل، وفيما يُفكَّر فيه؛ ولذلك يؤسّس التطوّر على قاعدتين:

---

[67] الكهف: 29.

الأوّلى: تطوير الفِكْرِ بما يمكّن الإنسان من التفكير، وهو يُفكّر فيما يُفكّر فيه قبل أن يتّخذ القرار تجاه ما فكّر فيه بداية حتى يُحسم الأمر تطوّرًا.

الثانية: تطوير الفكرة بفكرة أكثر ارتقاء؛ حتى تتولّد الرّؤى المتجاوزة للمألوف والمعتاد التفكير فيه.

وعلى هاتين القاعدتين تطوّرت رؤى البشريَّة وهي على التخيير بين اختلاف وخلاف، ولا حاسم للأمر إلّا المحاجّة والمجادلة، أي: لا حاسم للأمر إلّا الالتقاء الذي فيه تُدحض الحُجّة بالحُجّة، وحتى إن امتلأت الحجج والجدل شدّة، لكنّ الشدّة الجدليَّة ضرورة؛ فهي لا تكون إلّا من أجل الحرص، وهي كذلك لا تكون إلّا بغرض التسوية لما سلف من انحدار وسُفليَّة، وهي بغاية الارتقاء عن كلّ ما يؤدّي للفرقة والخصام؛ ولهذا فمن أجل التطوّر والارتقاء لا يجادلك إلّا من هو حريص عليك، ويأمل ألا تظل تائها عن ممارسة وتأدية ما يجب أن يكون من أجلك وأجل من تربطك به علاقات.

ولذا فأصحاب الحُجج تطوّرا يسعون إلى إحداث النُّقلة، والارتقاء بالنَّاس إلى ما يجعلهم قمّة، وفي المقابل من يخالفهم بغير حُجّة يشدّ إلى الخلف إعاقة، وبين هذا وذاك فلا استقرار، ولا أمن، ولا ارتقاء ولا تطوّر لأحد ما لم يؤخذ بالحُجّة ارتقاءً واستيعابًا، ولا استثناء لأحد بأيَّة علّة، إلّا إذا كان أحد علّة في ذاته، ولا استغراب من هذا الأمر؛ حيث لكلّ قاعدة شواذ، ومع ذلك الحجّة الجدباء

لا تصمد أمام الحجّة الحلّ التي تعلو بأصحابها تطوّرا وارتقاء إلى ما يمكّن من المعرفة، التي بها سترتق الأرض والسّماوات كما كانت أوّل مرّة.

ولأنَّها المجادلة تطوّرًا وارتقاء؛ فهي لا تكون إلّا بالتي هي أحسن: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[68]؛ أي: لا ينبغي أن تكون المجادلة بالتي هي أسوء؛ فالأسوء لا يقود إلّا للخلاف والصّدام والاقتتال، ومن هنا، يلد الألم ألما.

وحتى لا يسود الألم بين النَّاس، ينبغي الأخذ بمبدأ المجادلة حرصًا وتطوّرا وارتقاء، ويجب أن تبدأ المجادلة مع المختلفين من حيث هم عليه اختلافًا، لا من حيث ما يجب أن يكونوا عليه اتفاقًا، فما ينبغي أن يكونوا عليه اتفاقًا هو المأمول الذي من أجله تجري المجادلة بالتي هي أحسن، أمّا المجادلة غِلظة؛ فلا تكون إلّا مع من يستغلظ على الحقّ بغير حقّ، وهنا يصبح المستثنى من جنس المستثنى منه (غلظة بغلظة)، ومع ذلك فللعفو والصّفح مكانة لا يبلغها إلّا من تدبّر أمره حكمة.

ولأنَّ الجدل بالتي هي أحسن وسيلة للارتقاء؛ فينبغي أن تكون أساليبه على الترغيب والتشويق والنّهي والرّهبة والتحذير والإنذار مع مراعاة الفروق الفرديَّة بين المجادلين ارتقاء؛ ففي الجدل الرسائل تُرسل بين المجادلين لكلٍّ حسب ما هو عليه من معرفةٍ،

[68] العنكبوت: 46.

وثقافةٍ، ومعتقدٍ، ومنطقٍ، مع عدم الإغفال عن أهمية الحكمة في إدارة الجدل؛ فالإنسان مع أنَّه خُلق من نطفة، فإنَّه خصيم؛ ولهذا فهو مجادل؛ ولأنَّه كذلك فمن حقّه أن يجادل، ولكن حرصًا وتطوّرًا وارتقاءً ينبغي أن يجادل بالتي هي أحسن؛ فهو كلّما جادل بالتي هي أحسن كسب قلوب النَّاس، وفي المقابل متى ما استغلظ عليهم استغلظت قلوبهم عليه.

ولذلك فالجدل تطوّرا وارتقاء لا ينفصل عن الحُجّة، مع أنَّ الحُجّة أساسا معلومة مستقلّة بذاتها، وستظل إلى أن تُستخدم أو تُوظّف جدلا، بما يقرّ حقّا أو يؤدّي واجبا، أو يُمكّن من حمْل مسؤوليَّة، ومن ثمّ، فالحُجّة تُفحِم أو تُلزِم من كان على غير حُجّة حتى يُغيّر ما بنفسه، ومن هنا تلد الموعظة والعبرة ارتقاء، وفي المقابل الجدل غِلظة يدخل المجادلين في حلقة الصّدام الذي كلّما انتهى بدأ.

ولأنَّ الجدل بالتي هي أحسن جدل حُجّة؛ فينبغي أن يكون على اللين مع تبيان الدّليل والبرهان شاهدا بين أيدي المتخالفين، ولنا في إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام القدوة الحسنة حينما جادل أباه آزر وهو يخاطبه بقوله: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ

الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}[69]؛ فقوله وهو يجادله رأفة وودّا: (يَا أَبَتِ) وهو يكررها مرات: (يَا أَبَتِ)، هي بهدف صحوة أبيه آزر من الغفلة التي ألمت به، والجهل الذي استحوذ على عقله، وبخاصّة أنّ إبراهيم لم يخفِ علمه وحرصه ومحبّته له؛ ولذلك كان ارتقاء إبراهيم مؤسّسا على عدم الإكراه؛ فالإكراه حجّة من ليس له حُجّة: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[70].

ولأنَّه الجدل ارتقاء؛ فهو لا يكون إلّا عن صبر، وسعة صدر، بهدف استيعاب المختلفين، وأخذ الأحجار التي امتلأت بها أيديهم؛ ولذا ينبغي أن يمتلك المجادل المقدرة على استجلاب الدلائل والبراهين لإثبات قضيّته، وفكّ القيد عنها، مع فكّ اللبس والغموض عمّا يستخدمه من مفاهيم؛ وفي هذا الشأن أتذكّر تلك المجادلة التي جرت بين النبي إبراهيم ومن حاجّه في ربّه: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}[71]؛ فاللبس في ذهن من جادل إبراهيم في ربّه كان متعلّقا بمفهوم الإحياء والإماتة؛ فإبراهيم قال: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)، وفي المقابل كان قول المجادل له: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)، واللبس هو: أنَّ إبراهيم يجادل بحجّة من يحيي ويميت، وفي المقابل فهم المجادل

---

[69] مريم: 42 . 45.

[70] يونس: 99.

[71] البقرة: 250.

أنَّ الإماتة هي القتل؛ ولهذا أجابه بقوله: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) أي: وكأنَّه يقول: إذا أردت أن أقتل أحدا قتله، وإذا أردت عدم قتله تركته حيّا، ولكنَّ الفرق كبير بين القتل الذي يكون على أيدي المتقاتلين أو القتلة، والموت الذي لا يكون إلّا بيد الله.

ومن ثمّ؛ فالحُجّة يمكن أن تكون مُعجزة تفحم المجادل بغير حُجّة: {قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}[72]، وفي المقابل يمكن أن تكون حلّا، ويمكن أن تكون موعظة، ويمكن أن تكون عبرة، ويمكن أن تكون دليلًا ملاحظًا أو مشاهدًا: (قولًا وعملًا وفعلًا وسلوكًا) {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا}[73].

وعليه:

فالجدل تطوّرًا هو ما ليس بتفاوض، بل هو: التوجُّه للنَّاس بالحُجّة تطوّرًا وارتقاء، وهي الحُجّة التي لا تقبل التنازلات؛ ذلك لأنَّ الحُجّة ينبغي أن يؤخذ بها، أمَّا التفاوض فلا ينتهي إلّا بتقديم التنازل الذي من ورائه تنازلات.

ولذلك فالمجادلة تطوّرا وارتقاء فيها مكابدة وعُسرة، وهي في معظم الأحيان تستدعي تقديم المزيد من الحُجج الدّامغة التي لا تستفز

---

[72] البقرة: 158.

[73] يوسف: 26.

أحدًا، وبتقديم المزيد من الحجج ينبغي أن ينبهر الخصم بما يجذبه إلى الحقّ حُجّة بعد حُجّة.

ولذا؛ فالصّبر حُجّة المتجادلين؛ فعليهم به دون استرخاء؛ ولا داعي للقلق حتى وإن كانت الاستفزازات من ورائه، بل كلّما طال زمن التجادل والصّبر لم يفارق المتجادلين حُجّة بحُجّة كلّما اختنقت أنفاس من لا حُجة له.

ومن ثمّ؛ ففي المجادلة إصرارٌ، وعدم إعطاء الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، أمَّا الحوار فقد لا تكون فيه مكابدة، والمتجادلون عندما يفقدون قواعد الرّكون إلى المحاجّة المنطقيَّة، قد يضطرون إلى الخصام الذي لا طائل من ورائه إلّا الخلاف والفرقة، ومن هنا، يصبح كلّ شيء ممكنًا سواء أكان متوقَّعا أم غير متوقَّع.

ولذا فعندما تغيّب الحُجّة بين المتجادلين ارتقاء، يصبح المجال بينهم مفسوحا للخصام والاقتتال، ومن ثمّ فالجدل وما فيه من شدّة منطق السّلام، الذي إن لم يؤخذ به، قد تصبح مصارف الدّم بين النَّاس في حاجة للمزيد.

ومن هنا؛ فالمحاجّة تطوّرا وارتقاء ليست نقاشا بلا دراية، ولا مفاوضات بلا خبرة ولا مهارة، بل المحاجّة تحاور يتكئ على حُجج بيّنة بغرض تنقية الشوائب التي نُسجت بين المتخالفين أو المختلفين، الذين يميلون عن صائبة المطلب والقول بعلل فيها علّة.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء قد خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه خُلق ليجد نفسه بين قيم حميدة وفضائل خيّرة، واستفزاز الحاجات المتطوّرة في مقابل قصور مشبعاتها؛ ممّا يدعوه إلى قبول التكيّف بتنازلات، أو أن ينتظر زمن التوافق الذي قد يطول ويجعله على غير أملٍ.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء مقوّما، فإنَّه لم يُخلق نسخة واحدة وكأنَّه أوراق سحب، بل لكلّ خصوصيته التي بها يتميّز عن غيره كما غيره يتميّز عنه؛ فالنَّاس مختلفون، ولكلّ بصمته الخاصّة التي لا تتكرّر: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[74]، فما أعظم هذه الآية: (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: مع أنَّهم من نفس واحدة فإنَّهم لا يتطابقون، وإن تماثلوا صفة فهم مختلفون بصمة ومقدرة وتذكّرا وتدبّرا وتفكّرا؛ ولهذا فهم يختلفون، وسيظلون مختلفين: (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: إنَّهم خُلقوا على الاختلاف الذي جعلهم في حاجة لحشد الطّاقات حيث لا إمكانيَّة للتطوّر والبقاء بغير الاختلاف.

ولأنَّهم خلقوا على الاختلاف؛ فهم في حاجة لِما يجمع شملهم متى ما اختلفوا، أو تخالفوا، فالمحاجّة والجدل جهود تُبذل لإظهار الحقّيقة التي لا تكون إلّا بامتلاك السّند الذي يَحتكم به ويُحتكم إليه؛ ومع ذلك تختلف المجادلة عن المحاجة؛ من حيث كون المجادلة تتمركز على التمسّك بالحُجّة دون تفريط ولا يأس ولا قنوط، أمَّا المحاجّة

[74] هود: 118، 119.

فالأمر يقتصر على تقديم الحُجّة؛ لتكون شاهدة على القضية، ولمن شاء أن يحكم بها عدلًا؛ فليحكم.

الفِكَر تُولِّد حلولًا:

الفِكَرة كونها من إنتاج العقل، لا تستمدّ إلّا من واقع هو في حاجة لأن يُطوّر، أي: معظم الفِكَر هي نتاج استشعار معضلة تستوجب حلًّا، ومتى ما بلغ الإنسان حلّا اكتشف معضلة أخرى تلفت عقله وتستثيره تفكيرا بغاية بلوغ الحلّ؛ فيفكّر تدبّرًا حتى يقتنص لها حلّا من خلال بحث يتّضح فيه أثر المتغيّرات المستقلّة والمتداخلة في كلّ معضلة؛ ولهذا كلّما ازداد عدد المشاكل والمعضلات الحياتية تولّدت الفِكَر، وهذا يعني: وجود علاقة واسعة بين تعدد المعضلات الحياتية وعدد الفِكَر المتولّدة في عقل الإنسان تطوّرًا.

فالإنسان بداية لم يكن على الفكرة، بل كان على الفطرة والتقليد، ثمّ الإنباء؛ ولهذا تعد الفكرة لاحقة لِما سبق، والإنسان ليس بمولودها؛ فهو المخلوق الذي لا إرادة له في خلقه، ولا تخيير له في ثنائية وجوده. بل التخيير كان بأسباب الاختلاف الذي خُلق عليه جنسا ونوعا؛ ولهذا الإنس غير الملائكة والجن، وكذلك الذّكر غير الأنثى، والرّجل غير بقية الرّجال، والأنثى غير بقية الإناث، وهكذا كان الاختلاف بين الأجناس والأنواع، ولكلّ بصمته التي تعطيه خصوصيَّة تجعله مختلفا عن خصوصيات الغير.

ولأنَّ الإنسان في دائرة الممكن خُلق مخيّرا؛ فهو يفكّر فيما يشاء كيفما يشاء ومتى يشاء، وهو يقبل ويرفض، ويخطئ ويصيب؛ وبإمكانه أن يتطوّر ارتقاء، أو أن يتخلّف وينحدر دونيَّة؛ ولأنَّه مخيّر فله من المشيئة في دائرة الممكن ما له؛ فهو يؤمن ويكفر ويشرك كما يشاء؛ ذلك لأنَّ كلّ شيء في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع هو بين يديه إرادة.

ومع أنَّ الإنسان مخيّرٌ، فإنَّه لم يترك هكذا وكأنّه بلا قيود؛ فهو المعرّض للاختبار من قِبل من خَلقه في دائرة الممكن مخيّرا، وأوَّل اختبار آدمي هو ما فشل فيه آدم نفسه، وهو يوم أن أغواه الشّيطان وزوجه وزيّن لهما الأكل من تلك الشّجرة: {قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[75]، أي: في ذلك اليوم كانت المواجهة بين العقل والشّهوة، فتغلّبت الشّهوة على العقل الذي لم يستدع قوّته في حينها؛ فارتكب آدم فعل المعصية، التي لا زالت ترتكب إلى يومنا هذا شهوة ورغبة وغفلة: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}[76]؛ فهبط الأعداء على الأرض دونيَّة؛ ولأنَّهم الأعداء فهل يمكن أن تكون حياتهم على المحبّة ولا شيء غيرها؟

---

[75] طه 120، 121.

[76] طه: 123.

أقول:

كلّ شيء في دائرة النّسبيَّة هو بين متوقَّع وغير متوقَّع؛ ولهذا فالقلب الواحد يحمل في سويدائه المتناقضات: (حبٌّ، وكرهٌ)، ولكلّ مستفزّاته وعِلله، ولا استغراب أن تحدث المفاجآت في الزّمان والمكان غير المتوقَّعين؛ فهذه من طبيعة خلق الإنسان الذي خُلق مسيرًا ومخيّرًا في ذات الوقت؛ ولأنَّه كذلك فلا بدّ وأن يكون على التخيير بين متوقَّع وغير متوقَّع ولا استغراب.

ولأنَّ بني آدم مخيّرون؛ فقد اختار بعضهم المعصية كما اختارها أبوهم من قبلهم، غير أنَّ أباهم استغفر لذنبه؛ فتاب الله عليه، ولكنَّ بعض الأبناء لم يستغفروا عن ذنوبهم؛ فأضافوا إلى ما هم عليه من ذنوب ما أضافوا.

ومن هنا، كانت بداية الخلاف والصّراع والاقتتال بين بني آدم بما تثيره الشّهوة والرّغبة تحت مظلة الغفلة، ثمّ أخذ الخلاف والصّراع منحى دينيا بين من يأخذ بالنّبأ والرّسالة، ومن يكفر بهما. وهكذا ظل العداء بين بني آدم وكأنّ العداء قد خُلق معهم على الفطرة والتقليد، وهكذا ظلّ القتل من بعد تلك الحادثة (قَتلُ ابن آدم لأخيه)، وكأنّ الأنبياء والرّسُل لم يبعثوا بعد.

وما يُلفت النّظر هنا، أنّ الذي قُتل من بني آدم هو من اتّقى ربّه هداية ومخافة؛ ممّا جعل البقاء لمن لم يتقه بما عملت يداه، ومن هنا أصبحت كفّة المغالبة راجحة تجاه: (من قتل أخاه ظلما)؛ ولهذا:

{أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}[77]، ولكن لو كُتِبَ البقاء للذي اتّقى ربَّه في نفسه وأخيه، لكان الأمر في دائرة المتوقَّع غير ذلك، ومن ثمّ اتسعت دائرة العصاة بقتل المسالم وبقاء الظالم، وظلت الفتنة على التكاثر مع تكاثر بني آدم إلى يومنا هذا، وحتى النّهاية، أي: لا يمكن أن يقف الاقتتال، والمفسدون والمخالفون والعصاة والمجرمون في الأرض هم الذين أهبط بهم والأرض أرضا.

ولهذا؛ فالفساد في الأرض كَثُر بما عملته أيدي النَّاس؛ ومع ذلك لم يبق الفساد على حاله؛ فبعث الله نوحا نبيًّا؛ لينذر قومه الذين أفسدوا في الأرض: {فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}[78]، ومع أنَّه لبث فيهم هذه السّنين، فإنَّ أكثرهم ظلوا ضالّين، إلى أن صدر حكم الله عليهم غرقًا، وهو غرق من لم يتّعظ ولم يعتبر ولا يهتدِ للتي هي أحسن؛ فغرقت تلك البقعة من الأرض بمن عليها خلافا، إلّا المؤمنين بما جاء به نوح من عند ربّه، كُتبت لهم النّجاة على ظهر سفينة النّجاة، التي حُمِلَ فيها من كلّ زوجين اثنين: {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}[79].

إنَّها بداية حقبة جديدة لنشوء مجتمع إنساني جديد، كلّه على الهداية والإيمان؛ فكان البقاء للحقّ، ولا وجود للباطل، ولكن يظل

---

[77] الأنعام: 111.

[78] العنكبوت: 14.

[79] هود: 40.

للتخيير والاختلاف والإرادة والرّغبة والشهوة أدور مؤثرة على الفعل والعمل والسّلوك البشري؛ ممّا يجعل بني آدم بين تطوّر وارتقاء، وسُفليَّة ودونيَّة؛ ومن ثمّ فإذا كان الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، لم يستطع البقاء على حُسن تقويمه اختيارا: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[80]؛ فكيف بمن خُلق من نطفة من زوجين مختلفين؟

ولذلك، حصلت الانتكاسة من بعد نوح والطّوفان؛ فأصبحت الكثرة على الضّلال والقلّة على الإيمان، فبعث الله إبراهيم ومن بعده الأنبياء تترى، من أجل الهداية والإصلاح وبلوغ الحلّ فيما هم فيه مختلفون: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ}[81].

ومن هنا، أصبحت الشرائع بين النَّاس تنظّم العلاقات الإنسانيَّة على الفضائل الخيّرة المستمدّة من الأديان، سواء أكان النَّاس مؤمنين، أم غير ذلك؛ وذلك وفقا لقاعدة: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[82]؛ أي: أصبحت الأديان هي المصدر الأوَّل لتنظيم العلاقات بين الأمم والشّعوب، فهي قد لفتت النَّاس إلى آيات الخالق في كونه، وفي المعجزات التي بعث بها رُسُله؛ فكان الجدل حجّة بحجّة، حتى وُلدت الفلسفة في عقول النَّاس بحثا عن الحقيقة المجرّدة،

---

[80] طه: 121.

[81] المؤمنون: 44.

[82] البقرة: 256.

ولا شيء في دائرة الممكن يعيق العقل عن البحث والتقصي بما أنّ العقل قادر على الإعمال فكرًا.

محطات تطوّر الفِكْر:

مرّ الفكر الإنساني تطوّرا وارتقاء بمراحل الخَلق والنّشوء والفطرة والتقليد، ثمّ بلغ مراحل إنتاج الفكرة التي كانت الأديان مثيرها المعرفي، والتي منها الشّعوب صاغت فِكْرًا وفلسفةً بغاية تنظيم العلاقات بين النَّاس وممارسة الحريَّة عن إرادة بلا إكراه ولا هيمنة ولا حرمان؛ فتأسّست النّظم والنّظريات السياسية والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة على قيم غير ثابتة إلى أن أصبحت قيم الاستيعاب، والاحترام، والتقدير، والاعتبار، والتقبُّل، والاعتراف ثوابت لممارسة الحرّية، وأصبح العالم قرية لا تستقر ارتقاء إلّا على حقوق تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسؤوليَّات تُحمل.

وحتى لا يظن بعض النَّاس أنَّ التطوّر كان انسيابيا، وأنَّ الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم لم يمرّ سلوكه بانتكاسات وسُفليَّة ودونيَّة؛ فتلك العصور المظلمة حتى وإن بعدت عنّا زمانًا لا زالت شواهدها في محفظة التَّاريخ، وهي في أذهان بعض النَّاس لازالت أساطير على قيد الحياة، حتّى وإن لم تدخل سوق العمل.

الفِكْر الأسطوري:

الفِكْر في ذاته لم يكن جزءا من الأسطورة، ولا الأسطورة جزءا من الفِكَر، بل الفكر ملكة إعمال العقل، وشمعة نوره التي بها يهتدي

إلى ما يشاء وفقا لما يريد، أمّا القصد بمفهوم الفكر الأسطوري؛ فهو ما يدلّ على مستوى التفكير في حقبة من أحقاب النّضج المعرفي ارتقاء؛ فالأسطورة في معظم الأحيان لا تستند على واقع إلّا لتضخّمه وتزيّنه، ثمّ تسوّقه وكأنّه الحقيقة.

فالفِكْر الأسطوري مشهد من مشاهد الحياة، التي مرّت بها البشريَّة، يسرد المعلومات ويفسّرها، ولكن لا يقدّم الحلّ، ولا علاقة له بالتحليل، ولا بالمحاجّة المنطقية، ولا التجربة (المشاهدة والملاحظة المصنّفة). بل المستوى الفكري الأسطوري مستوى خرافي، والشواهد فيه بين المتحاجِّين خرافة بخرافة، وشعوذة سحرية بأخرى مثلها، والطبيعة هي المسيطرة، والخنوع إليها يحقّق الاستئناس. وحيثما وجدت الأسطورة، غاب الشّك العقلي، وساد التسليم بالأمر الواقع خيالًا، ودون حاجة للبرهان.

والتناقض مع أنّه السّائد حكاية، ولكنّ الاستغراب في زمنه لا يلاحقه، والدّليل لا يزيد عن كونه حكاية فاقدة للشواهد، وفي الأساطير من البطولات ما فيها، وفيها من المتناقضات ما يسفّه بعضها بعضًا، ومع ذلك لا تفقد الحكاية الأسطوريَّة صوغها حكيًا وسردًا.

والأسطورة مع أنَّها من إنتاج العقل، فإنَّها على غير علاقة بصناعة المستقبل؛ فهي مرتبطة بالحاضر وحاضناته في التاريخ، وكذلك الطبيعة التي لا إمكانيَّة لمغالبتها إلّا بسحرٍ أو إله قادر على

أخذ الثأر منها؛ ولذلك فالمستوى الفكري الأسطوري تملؤه الخرافات والشعوذة وعبادة آلهة من الطبيعة؛ وممّا تصنعه أيدي النَّاس.

وتعد مرحلة التفكير الأسطوري مرحلة الأنا هو البطل، والخرافة مرتكز الغيبيات، والكون مصدر العقيدة، ويُعدّ السّحر هو الممهّد للأسطورة، والأسطورة هي الممهدة للفكر الفلسفي.

ولهذا، في زمن الأساطير تستمدّ المعلومات حكاية شفويّة، وتفسّر برؤية الأنا البطل، وتوظّف بوجهة نظر السّارد، وتتناقل عنعنة دون ضرورة لمعرفة المصدر، والمجتمعات في زمن الأساطير مفكّكة؛ حيث لا سياسة ولا اقتصاد ولا فلسفة، بل السّلوك وحده مقياس القيم، أمَّا العمل فالطبيعة وحدها المتحكّمة فيه، ولكن هذا لا يعني عدم وجود الأديان، بل الأديان بدأت مع بداية الخَلق: (آدم)؛ ولذا فمهما انحرف بعض الأفراد وأخذ من دون الله أربابا، يظل بعض العباد على كفّة الخير مؤمنا حتى وإن واجه أصحاب الشّر صِدامًا وخلافًا واقتتالًا.

ففي زمن الأساطير، تصطنع المواقف، ويبالغ فيها بطولة، وتسرد كلاما وكأنّها حقائق مع أنَّها تفتقد للبرهنة والشّاهد، أمَّا القدوة في زمن الأسطورة فكأنّه خُلق وحيدا، ولن يتكرر.

الأسطورة وإن كان لها سند من الطّبيعة، ولكن في بعض الأحيان تُنسج خيالا، وتقدّم حقيقة، وفي كثير من الأحيان تتولّد الأسطورة من الإشاعات والخرافات المتناقلة شفاهيَّة، وهي كمن

يكذب كذبة، ثمّ يصدّقها، وفيها من الحكي عن الآلهة وما يمتلكونه من قوّة وكأنّهم لم يكونوا آلهة بلا حول لهم ولا قوّة، وفيها من الحكي عن الأبطال الذين لا بطولات لهم ما فيها من تسويق وتضليل لعقل المستمع، ومع ذلك يستمدّ الحاكي بطولته ممّا يحيكه من تخيّل وما يسوّقه عن غير معرفة ودليل.

ولذلك فالأساطير تجعل القصّاص وكأنّهم في ساعة عمل وإنتاج، وفي المقابل تجعل المستمعين منبهرين في حالة استرخاء، وهم يأملون لو كانوا مثل أولئك الأبطال المحكي عنهم بطولات؛ ولهذا فمقدّمات القضيَّة الأسطوريّة دائما بدايتها تكون صفرا ونتيجتها تكون صفرًا.

ومن هنا؛ فمرحلة الفكر الأسطوري مرحلة لكّ العلكة من فمٍ إلى فمٍ؛ ذلك لأنَّ الزّمن الذي يشغله الحُكاة حكيًا، هو بحقّ زمن شغل الفراغ بالفراغ، أي: إنَّ الأسطورة لا تكون إلّا نتيجة حالة من الرّكود الحياتي، مع أنَّ الأسطوريين في زمنهم يظنّون أنَّ حياتهم حياة مملوءة بحيويّة البطولات المتفاعلة بينهم والآلهة والطّبيعة.

ومع أنَّ الفكر الأسطوري سردي، حيث لا جديد، فإنَّه بقدر ما يتبنّى رأيا يرفض الرّأي المخالف حتى وإن كان المنقذ، وعندما يتمّ الأخذ بفكرة ما يتمّ التسليم بها حتى وإن لم تكن صادقة؛ ولهذا يتمّ الرّكون إلى الخيال، وكأنَّه مصدر الحقائق، ولا شكّ يلاحقه.

ومع أنَّ عصر الأساطير قد ولّى، فإنَّ في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع متى ما توافرت معطياته عاد إلى المشهد من جديد؛ فالانتكاسات المؤلمة فكريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا ودينيًّا متى ما ألمت بالنَّاس وانحدروا دونيَّة تحت العوز وضغط الحاجة، فلا استغراب أن تعيدهم الظّروف المؤلمة إلى الفوضى، ثمّ من بعدها إلى تلك الأساطير والخرافات التي كانت قيدا على الفكر البشري في زمن سيطرة الطبيعة، وفي المقابل متى ما توافرت معطيات النّهضة: (فكرًا وعلمًا ومعرفةً وتجربةً) نهض النَّاس تحدّ لكلّ ما يؤلم.

ففي زمن الأسطورة كان الهنود يعتقدون أنّ توحّد الأرواح الخيّرة في روح واحدة تمثل النّور، وتوحّد الأرواح الشريرة في روح واحدة تمثل الظّلمة، وعندما يحدث الصّدام والمواجهة ينتصر النّور على الظّلمة، وينتهي الحدث التّاريخي، وكذلك كانت رؤية الرّومان الأسطوريّة، لا ترى إمكانيَّة لتحقيق الارتقاء إلّا بالقوّة؛ ولذا فعندما امتلكوها قالوا: (الأرض للرّومان)، أمّا اليهود فلا يرون نهوضا ولا نهاية لطي صفحات التخلّف إلّا بالتفوّق ارتقاء؛ ولهذا قالوا: (شعب الله المختار)، أمَّا الإسلام فلا يرى ارتقاء وحلّا إلّا بالمشاورة والكلمة السّواء ولا إكراه في الدين؛ وهكذا اليوم يرى الفكر الغربي لا ارتقاء ولا حلّ للمشكلات الإنسانيَّة إلّا بالبحث العلمي وممارسة الديمقراطيَّة فكرًا وسلوكًا وعملًا.

وعليه:

إذا أردنا القطيعة والفرقة مع عصر الأساطير حتى لا يعود ثانية، فينبغي أن نتجاوز عن تعميم الرؤى والأحكام الخاصّة على العموم، فالإنسان قيمة في ذاته؛ فينبغي أن يكون مقدّرًا في كرامته، ومحترمًا برأيه، ومعترفا بإرادته، ومعتبرا باختلافه، ومستوعبا في شخصه (هو كما هو عليه) من أجل الانتقال معه إلى ما ينبغي أن يكون، مع وافر الثّقة في ممارسة الحرّية بأسلوب ديمقراطي يسمح بالتمدّد إلى النّهاية، دون أن يكون التمدّد على حساب الغير.

الفِكْر الفلسفي:

يعدّ الفِكْر في ذاته معطية عقلية تميّز الإنسان تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا، وهو الملكة الذهنيّة التي يثيرها المفهوم انتباها كما يثيرها المشاهد والملاحظ والمجرّد، أمّا الفِكْر الإنساني فهو إنتاج العقل وهو المتولّد من مجموع الفِكَر المنتجة معرفة. وعلينا أن نميّز بين مفاهيم ثلاثة وإن كانت متداخلة معنى، لكنّها دلالة ليست كذلك:

المفهوم الأوّل: الفِكَر، هي: حاصل مجموع الفِكَرة التي ينتجها العقل.

المفهوم الثاني: الفِكْر، وهو: من إعمال العقل، ومحفظته الذهنيَّة التي تلفته إلى ما يجب، وهو المنتِج للمعرفة.

المفهوم الثالث: الفِكْر، وهو: الصّفة المستمدّة من الفِكْر ذاته، بوصفه من إنتاجه، أي: إنَّ الفِكْر لا ينتج إلّا فِكْرا، أمّا العقل فلا ينتج إلّا معقولا، سواء أكان سالبا أم موجبا.

ومن ثمّ؛ فالفِكْر الإنساني يتمركز على نضج الفِكَر، وصوغها في قضيّة تجيب عن التساؤل الفلسفي: (كيف؟)، ولكن عندما تصاغ الفِكَر المتعددة وتنصهر في بوتقة الرّؤية أو النظريَّة، تأخذ صفة الفِكْر الذي هو من معطيات العقل الإنساني، ومن هنا فالفِكْر ملكة عقلية تثيرها مستفزّات المشاهد والملاحظ والمجرد على السواء؛ فتتعامل معها تفحّصا بلا إشارة قف، ولكن وفقا للمقدرة؛ ولهذا فالفِكْر من إعمال العقل، أمَّا ملكة توليد الفِكَر؛ فهي من مجموع الفكرة.

ولأنَّ الفِكَر هو مجموع الفكرة، وفي المقابل الفِكْر هو صوغها في رؤى أو نظريات؛ إذن: الفِكْر لم يعدّ ملكا لشخص بعينه، بل هو نتاج بشري بغاية تنظيم العلاقات الإنسانيَّة على فضائل وقيم تمكّن من النّهوض والارتقاء الممكّن من ممارسة الحرّية، وتحقيق إشباع الحاجات المتطوّرة تنوّعًا.

فالفِكْر الإنساني نتاج ما وصل إليه العقل البشري من معارف وعلوم ورؤى، وهو الفكر الذي أسّس ثقافات وحضارات سادت، ثمّ بادت، ثمّ نهضت حضارات غيرها، وهكذا ستظل الحضارات بين نهوض وارتقاء، وبين إبادة وسُفليَّة، وفقًا لقاعدة الصّراع بين ما يجب

وما لا يجب، وهكذا ستظلّ الحياة البشريَّة في دورة من التفاعل بين: (ارتقاء ودونيَّة) حضارات تسود، ثمّ تبيد، ثمّ تنهض حضارات أخرى.

ولذا، يعدّ الفِكْر من إعمال العقل، وهو المنتج لمجموع الفكرة، وصائغها فِكْرا، إنّه (المنتِج) عقلا في مقابل مفهوم الفِكْر (المنتَج) معرفة، وهو المستهدف تفسيرًا.

لقد تطوّر الفِكْر الإنساني من الاستئناس للفطرة، إلى الأخذ بالتقليد تخييرا؛ فكان إرادة بين مفترق طرق العشوائية الفكريَّة؛ مرّة يأخذ بما يؤدّي إلى الارتقاء، ومرّة يأخذ بما يؤدّي إلى الانحدار، حيث عاش الإنسان الأوّل حياة الخلق في أحسن تقويم، ثمّ انحدر سُفليَّة؛ فاتّسعت الهوة بينه وتلك المكانة ارتقاء؛ فكانت الدونيَّة بين يديه سلوكا على غير فضائل ولا قيم حميدة، وكانت الأساطير ترافقه وكأنّها الحلّ في الوقت الذي فيه الخرافة لا علاقة لها بواقع؛ ومع ذلك جعلته الظروف يفكْر في نفسه ومن حوله وما حوله، فبدأت الفكرة تولد من الفكرة حتى استقام أمره فِكْرا؛ فانتبه إلى أهميّة الأديان حتى أثارته وعيا تجاه ما يجب، ولكنَّ الانتكاسات ظلّت تحفّه حتى أصبح كلما بنى حضارة أو أسّس ثقافة، هدّها بيديه، وهنا تكمن العلّة التي تستوجب حلّا.

وهنا أقول:

إذا أردنا حلّا فعلينا باحترام خصوصيات الغير، وعدم تهميشها أو إقصائها، بل ينبغي أن تقدّر؛ فتقديرها يلغي الاستثناء،

ويجسّد الاختلاف الذي كلّما ساد بين النَّاس اعترافا ساد الحلّ بينهم عدلا وارتقاء.

ولمتسائل أن يتساءل:

وماذا تعني سيادة الخصوصيَّة ارتقاء؟

إنَّها سيادة الاختلاف، وهو الذي خُلق الإنسان عليه خَلقا؛ ولذا فكلّ من يحاول أن يلغي الاختلاف يجد نفسه في مواجهة مع طبيعة الخَلق التي لا يمكن أن تتبدّل، وكلّ من يحاول أن يلغي أو يطمس الخصوصيَّة، وكأنّه يحاول أن يلغي الاختلاف، ومن هنا تصبح المواجهة مع كلّ من له خصوصيَّة. والخصوصيَّة لم تكن العادة ولا العرف؛ فالعادة والعرف بالزّمن والتعلّم قابلان للتغيير، أمّا الخصوصيَّة فهي الاختلاف الذي لا يتغيّر، إنّها الهويّة المميّزة للجنس والنّوع، والمميّزة للجماعات والشّعوب والأمم: (إنّها المستمدّة من فضائل الدّين، وقيم المجتمع، وطبيعة المكان، والظّرف السياسي، والاقتصادي، والنفسي، والذّوقي، والثقافي)، وهذه ستظل، وسيظل النَّاس مختلفين: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[83].

[83] هود 118، 119.

ولذا؛ فالحلّ هو اعتماد الاختلاف قيمة ضامنة للارتقاء، كما هو قيمة ضامنة لممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمْل المسؤوليَّات وتحمّل ما يترتّب عليها من أعباء جسام.

ومع أنّ الفِكْر الإنساني واحد، ولكن يظلّ للخصوصيَّة الموضوعيَّة ما يميّزها فكرا؛ فهناك الفكر الفلسفي، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، وهناك التجربة، وهذه الخصوصيات الفكريَّة تتفرّع هي الأخرى إلى علوم نظريَّة وتطبيقية تمكّن من معرفة الحلّ اختلافًا.

وبما أنَّ وراء الفكر الإنساني فلسفة؛ إذن: فهو المؤسّس على التساؤل: كيف؟

إنَّه التساؤل الذي يسعى إلى معرفة الكيفيَّة التي كانت عليها الأشياء، وكذلك الكيفيَّة التي ينبغي أن تكون عليها وفقا لما نشاء؛ فالفلسفة تتساءل عن كيف خلق الشيء شيئا؟ وكيف هو شيء؟ أي: كيف كان؟ وكيف يمكن أن يكون؟ ولهذا فالتساؤل عن الكيفيَّة تساؤل نوعي احتمالي، فيه من التعجّب ما فيه، إلى جانب الاستغراب بين الصّعب والمستحيل، وكذلك الميسّر.

إنَّ التساؤل عن الكيفيَّة يجعل الفكر الفلسفي على حالة من التنقّل بين المشاهد والملاحظ والمجرّد، والسؤال كيف؟ لا يرتبط بفلسفة أفراد ولا مجتمعات، بل يرتبط بالفكرة التي دفعتها الحيرة بحثا عن بلوغ الحلّ؛ ولهذا وراء كلّ فكر وعلم فلسفة (حكمة)؛

فللرياضيات فلسفة، ولعلم الكيمياء فلسفة، وللعلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة فلسفات، ومن هنا، لا يمكن أن تكون الفلسفة غاية في ذاتها، بل الفلسفة هي الغاية وراء كلّ غاية.

ومن هنا، لا معنى للعلوم ما لم تكن من ورائها فلسفات، ولا يمكن أن يتذوّق المتعلّم حلاوة العلم ارتقاء ما لم يتمكّن من معرفة الفلسفة التي من ورائه.

ومن ثمّ؛ فالتساؤل: (كيف؟) هو تساؤل الواعين من النَّاس الذين يتفحّصون المشاهد، ولا يتوقّفون عنده نهاية، بل النّهاية بالنّسبة إليهم لا وجود إلّا ومن ورائه سرّ (حكمة)، وهنا يكمن الحلّ، الذي ينبغي أن يتمّ التفكير فيه بحثا؛ حتى يُكتشف ويُقدّم شاهدا بين أيدي النَّاس حلًّا يملؤه وجودًا.

فالتساؤل عن الكيفيَّة، تساؤل تدبّري بغاية معرفة العلّة والسّبب والنتيجة الممكّنة من المعرفة الواعية، ومن ثمّ بلوغ الحلّ، ولا شيء غير اليقظة إذا أرد النَّاس أن يتجاوزوا المعضلات بحلول حاسمة، ولكن أيَّة يقظة؟ إنّها معرفة الكيفيَّة، أي: معرفة الكيفيَّة التي خُلقت المخلوقات عليها، والكيفيَّة التي ينبغي أن تكون عليها المتهيآت: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[84].

[84] الغاشية: 17 . 20.

إذن: معرفة الكيفيَّة تتجاوز بأصحابها التوقّف عند حدود المشاهد والملموس إلى معرفة المجرّد ومعرفة القانون الذي وُجد المشاهد عليه، ومن يتمكّن من معرفة المجرّد والقانون الذي نشأ عليه، يتمكّن من معرفة ماهيَّته كما يتمكّن من توليد المعرفة المضافة.

ومع أنَّ القاعدة المنطقية ترى: أنَّ الارتقاء أساس الخَلق البشري: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[85]، ولكن الاستثناء يرى: كفّة الانحدار تكاد أن تتعادل مع كفّة الارتقاء، وهنا تكمن العلّة؛ حيث قلّة الجهد المبذول من قبل من يأمل ارتقاء، في مقابل الجهد المبذول من قبل من تشدّه السُّفليَّة، وهذا الأمر يشير إلى أنّ زمن الصراع سيطول بين من يأمل رتق الأرض بالمساوات، ومن لا يرها إلّا مفتقة.

حيرة الفِكْر:

تعد الحيرة انشغال ذهني بحلقة مفقودة متى ما تمّ التعرّف عليها فكريا، تجلّت الرّؤية، بين ما يشاهد ويلاحظ، وتلك العلاقة المجهولة.

والسؤال كيف؟ دائما هو السؤال المحيّر. والإجابة عنه تعد مرتكزًا فكريًّا؛ والمعرفة تكسر حاجز الحيرة كما تكسر الجمود الفكري ساعة الإجابة عن التساؤل: كيف؟ وأوَّل محيّرٍ للفكر الإنساني كيف خُلق الكون؟

---

[85] التين: 4.

من الذي خلقه؟

أين الخالق؟

ما هي قوانين الخَلق؟

ما هي صفات الخالق؟

إنَّ التساؤل عن الكيفيَّة التي خُلق الكون عليها تقود إلى معرفة خالقه، ومعرفة الخالق لا يمكن أن تتأتى إلّا بمعرفة صفاته؛ فالذين قالوا: إنّ الكون خالق نفسه، فقولهم يقبل لو عدّدوا لنا صفات الكون الخالق نفسه، ولكن إن لم يجدوها (لم يجدوا له صفة) فكيف لهم بالبقاء على ما يقولون؟

فالكون لا يمكن أن يكون كونا، لو لم تسبقه صفة بقائه وجودًا، ومن يجيز غير ذلك، وكأنَّه يودّ أن يقول: متى ما وجد المخلوق وجد الخالق، ولكنَّهم إذا أجازوا ذلك عن وعي لأدركوا أنّهم قد فصلوا المخلوق عن الخالق، ومن هنا، لن يصبح الكون إلّا على حالة واحدة، إمَّا خالق، وإمَّا مخلوقٍ، وفي كلتا الحالتين، فإن كان خالقا فهو المسيِّر، وإن كان مخلوقا فهو المسيَّر، ولأنَّ المخالفين هم من علماء الفيزياء؛ فهم متى ما فكّروا في صفات خالق نفسه عرفوا أنّه على غير صفة، وفي المقابل إن قالوا: له من الصّفات ما له فعليهم بعدّها، فإن عدّوها أحصوها، وإن أحصوها فلا يمكن أن تكون صفات خالق؛ ذلك لأنَّ صفات الخالق لا تعد ولا تحصى، وإلّا هل هناك من يعدُّ نعمه؟

النِّعم لا تحصى، وما من نعمة إلّا من صفة؛ ولأنَّه ما من نعمة إلّا من صفة، والنّعم لا تحصى، إذن: فكيف بإحصاء الصّفات التي لا تستمدّ النّعم إلّا منها؟

وعلينا أن نميّز بين أمرين: أن أكون على صفة، أو أن تكون لي صفة؛ فإن كنت على صفة فأنا المجعول عليها جعلا، وهنا فلا تطابق بين الصّفة والموصوف، ولكن إن تطابقت الصّفة مع الموصوف، كان الموصوف واحدا وإن تعددت صفاته.

ووفقا لهذه القاعدة المنطقيّة؛ فأين هي صفات الكون؟ وأين الكون من صفته؟

لا يمكن أن تكون الإجابة بلا لبس وغموض ما لم تحدّد صيغة السؤال: بأحد أمرين:

ما هو الكون؟ أم من هو الكون؟

فإذا قبلنا السّؤال الأوّل، قبلنا بأن الكون شيء غير مدبِّر، وإلّا لماذا استخدمنا الأداة الاستفسارية: (ما) التي لا تستخدم إلّا لغير المدبّر: (غير العاقل)؟

أمَّا إذا قبلنا السّؤال الثاني: (من يكون الكون)؟ فإنّنا كمن يقول: الكون مدبِّر أو عاقل، في الوقت الذي نعترف فيه بغير ذلك؛ ولأنَّه لم يكن مدبّرا ولا عاقلًا؛ فلا يمكن أن تستخدم الأداة

الاستفساريَّة: (من) التي لا تستخدم استفسارًا إلّا عن المدبّر أو العاقل.

وبما أنَّ الكون مجعول على الصّفة الحركيَّة: (تمدّدًا وانكماشًا وسكونًا)؛ إذن فليس له من صفة إلّا ما جُعل عليها جعلا؛ ولهذا فلا يمكن أن يكون الكون مصدرا للصّفات؛ ولأنَّه كذلك، إذن فمن ورائه خالق تتعدد صفاته، وهو الواحد الذي لا يتعدد.

وعليه: فالفرق كبير بين دلالة السؤالين:

من هو؟

وما هو؟

فمن هو؟ هو الخالق.

أمّا ما هو؟ فهو المخلوق.

ولذا؛ فمصدر الصّفات المتعددة لا يتعدد؛ ولهذا نقول: الصّفات سواء أكانت اسمية أم فعلية؛ هي المتطابقة مع اسم الذّات (الله): {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[86].

ولأنَّ الخالق يُدعى، فهل هناك من يدعو الكون؟ وإذا دُعي فهل من مستمع يجيب؟

---

[86] الإسراء 110.

من دون شكّ، من لا يُسأل عنه بأداة الاستفهام: (مَن) لا يمكن أن يكون مدبِّرًا: (خَالقًا) ولا يمكن أن يُجيب؛ ولهذا فلا صفة خَلقيّة للكون إلّا التي خُلق عليها تمدّدًا وانكماشًا وسكونًا، أي: لا صفة له إلّا الحركة التي خُلق عليها تسييرا إلى النّهاية.

هكذا هي الحيرة ترتبط بالشيء من محطّة فكرية إلى محطّة أخرى؛ فهي قد ألمت أوّل ما ألمت بالإنسان الأوّل (آدم) عندما وجد نفسه في حيرة بين خيارات ثلاثة: أمر الله ونهيه، وإغواء إبليس، وما اشتهته نفسه؛ فظل على حيرته حتى عصى ربّه، وهنا، وُلدت من بعد الحيرة حيرة لم تلد حلّا؛ فألمت به ثانية عندما اكتشف أنّه أصبح في دونيَّة مخالفة لطبيعة خَلقه في أحسن تقويم؛ فظل في حيرته حتى استجاب الله لاستغفاره وتاب الله عليه.

وهكذا هي الحيرة من بعده ظلّت تلاحق بنيه؛ فالمت بأحدهم ساعة قتله أخاه، ولم يعرف: (كيف؟) يواري سوأته، حتى بعث الله غرابين؛ فتقاتلا، ثمّ دفن القاتل قتيله في حفرة قد حفرها لهذا الأمر، حينها عرف ابن آدم ما يخرجه من حيرته، مع أنّ حيرة القتل ظلّت تلاحقه حيث لا إمكانيَّة لإدارة العجلة إلى الخلف.

ومن ثمّ، وجب التفكير فيما يُفكّر فيه بنو آدم قبل أن يقدِموا على الفعل والعمل والسّلوك؛ حتى يتجنّبوا الوقوع فيما يحيّر في لحظة المفاجأة، أو يؤلم، أو يؤزّم العلاقات؛ فتلك الأساطير في زمانها كانت والحيرة كانت فيها، وفي المقابل جاءت الإنباءات والرّسالات؛ لتزيح

الحيرة، وتجيب عن المجهول، ومع ذلك ظلت الحيرة في كلّ المجالس والمجادلات والمحاجّات التي لا ينفكّ غموضها إلّا بمعرفة الإجابة عن السؤال: (كيف؟) الذي سيظل محيّرا حتى بلوغ المعرفة عن بيّنة.

فظلت الحيرة الفكريَّة تراود عقول النَّاس من أجل بلوغ ما يفكّ أزماتهم، وينهي آلامهم، ويمكّنهم من الاختيار المشبع للحاجات المتطوّرة تنوّعا، سواء أكانت حاجات فكرية، أم سياسية، أم اقتصاديَّة، أم نفسيَّة، أم اجتماعيَّة، أم ذوقيَّة؛ ومع ذلك سيظل السؤال: (كيف؟) يلاحقنا وهو في حاجة للإجابة، أي: كيف تشبع الحاجات الفكريَّة؟ وكيف تشبع الحاجات السياسية، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والنفسيَّة، والذوقيَّة؟ وهنا، يكون أمر الإجابة بين أيدي النَّاس الذين يتعلّق الأمر بهم؛ حيث تقدير الخصوصيات، ووجوب الإرادة.

الفِكْر الفلسفي ارتقاء:

الفلسفة لم تكن علمًا مستقلًّا بذاته، بل هي ما يتولّد من الفكْر رؤى تمكّن من المعرفة، وترشد ارتقاء إلى تجاوز المشاهد والملاحظ إلى معرفة الكيفيَّة التي هو عليها، ومعرفة القوانين التي تتحكّم فيه، ومن أين جاءت تلك القوانين؟ وكيف كانت للشيء هيئة قبل أن يكون له شكل أو صورة؟؛ ذلك لأنَّ الفِكْر الفلسفي جدلي، لا يأخذ الفكرة إلّا بعد تبيّن، وهو وإن قبل الفكرة تجريدًا، لكنَّه لا يعدّها نتاجًا إلّا إذا أدت به إلى بلوغ المعرفة.

ولهذا؛ فالفلسفة نتاج التساؤل الفكري: ما هذا الكون؟ وكيف كان كونًا؟ ما هذا الشيء؟ وكيف كان شيئًا؟ وما ذلك الشيء؟ وكيف كان شيئا آخر؟ وما هو القانون الذي خُلق عليه الشيء؟ وكيف كان قانونا؟ وما هذه الصور؟ وكيف كانت هيئة قبل أن تصبح صورا؟ ومن الذي يسيّر الأشياء؟ أم إنَّ الأشياء تسيّر ذاتها؟

تساؤلات تلفت العقل تفحّصًا؛ فتزيده حيرة، يكون التفكير فيها بين صعوبة ويأس، ولكن عندما يكون الأمل ارتقاء؛ فلا قنوط، ومن هنا، تلد الحيرة يسرا يُمكّن من بلوغ المعرفة وعيًا.

ولأنَّ الفلسفة نتاج تساؤلات الحيرة المصنّفة علمًا؛ فهي نتاج العقل المتأمّل في الوجود وأسرار الكون بغاية المعرفة الواعية، ومع ذلك يمكن أن تكون النتائج المعرفيَّة خاضعة للتفسير شذوذًا عن القاعدة، فتكون نتائج المعرفة أحكامًا مسبقة، أو استنتاجات غير صائبة؛ فيحدث التشويش على الحقيقة المعرفية، كما هو حال العالم الإنجليزي ستيفن هوكينغ الذي استنتج فيما كتبه في مؤلفه المشروع العظيم (The Grand Design) أنَّ الكون خالق نفسه ولا خالق له[87]؛ ولأنَّه استنتاج تفسيري؛ فالاستنتاج التفسيري بلا أدلة قانونية تثبتها التّجربة يظل مرتبطًا بوجهة نظر المفسّر أكثر من ارتباطه بالحقيقة، وهنا تكمن العلّة، وبخاصّة إذا أُخذ التفسير وكأنّه حُكم

[87] ستيفن هوكينغ، المشروع العظيم، الناشر: بنتام بوكس، الولايات المتحدة الأمريكية، 2010.

قاطع، وهذا ما يتعارض مع الأحكام العلميَّة التي لا تكون إلّا عن حُجّة وبرهان، أو عن بيّنة قابلة للتجربة والقياس.

إنَّ مثل هذه التفاسير تُلفت العقل البشري تذكّرا لتلك الاستنتاجات، وتلك التفاسير الأسطورية التي سادت ثمّ بادت بلا حجّة، ولا استغراب أن تتكرر التفاسير الخاطئة بلا حُجّة، بل الاستغراب ألا يستفاد من النتائج التي انتهت إليها تلك التفاسير الخاطئة؛ ولذا علينا أن نميّز بين تفسير الخيال والأسطورة، وتفسير خطاب العقل والمبدأ.

تفسير الخيال أسطورة:

في تلك الأزمنة الأسطوريَّة كانت الثّقافة شفويَّة، فيها من الخيال والخرافة ما فيها، وفيها من البطولات الكلامية بغير بطولات ما فيها، فيها الحقائق تزوّر، والأكاذيب تسوّق، والأنا شاهد على كلّ الشواهد، أمّا كفّة ميزان الغير فهي على الدونيَّة، في الوقت الذي فيه الغير قد لا يكون كذلك.

إنَّه العصر الذي سادت فيه الحكاية والسّرد الخيالي، واللجوء إلى مظاهر الطبيعة الكونية، وكأنّها كما يراها اليوم العالم الفيزيائي ستيفن هوكنيغ خالقة لا مخلوقة، وبالتوقّف عند هذه العلّة تفحُّصًا، نلاحظ وكأنّ زمن الأسطورة ليس ببعيد عن زمننا؛ حيث انعدام وجود الحجّة دليلًا شاهدًا بين أيدي النَّاس.

ففي ذلك الزَّمان كانت المبالغة الكلاميّة هي سيّدة المواقف؛ حيث وصل الحال بمن يجهل الحقيقة إذا حكى عنها وأُخذ بحكيه كان حكيه وكأنَّه الدّليل والحجّة؛ ومن هنا قد يأخذ بعضهم بتفسير العالم الفيزيائي ستيفن هوكنيغ مع أنَّه بلا دليل، ولا شاهد علمي، سوى الاستنتاج تفسيرا.

تفسير العقل والمبدأ:

إنَّه التفسير المستند على الحُجّة والدّليل والشّاهد والبرهان المتوافر بين أيدي المتحاورين أو المتجادلين، مع الأخذ بالمكتوب الموثّق؛ كونه مصدرا من مصادر المعرفة الموثوقة. فتفسير العقل والمبدأ تصحبه الدقّة في التعبير مع الأخذ بالمفاهيم الفاصلة بين المتشابهات والمتقاربات في الصّفات والخصائص.

ولأنَّ التفسير العقلي نقدي؛ فهو يعتمد على البرهان المنطقي: (مقدمات ونتائج صادقة)؛ وهو لا يقبل بتفسير المعلومات المشكوك في أمرها، ومن يقدم على تفسير المعلومات قبل أن تحلّل متغيراتها وتبلغ نتائجها فهو كمن يفسّر الماء بالماء، ومن ثمّ؛ فلا يكون التفسير إلّا عاكسا لوجهة نظر المفسّر؛ ولهذا فالمعلومات غير قابلة للتفسير، أمَّا النتائج فتفسّر؛ ولذا فمن يفسّر المعلومات قبل أن تُخضع للتحليل فمهما بلغ من نتائج؛ فنتائجه غير موثوقة.

ولذلك؛ فتفسير المعلومات قبل أن تحلّل متغيراتها يكون أقرب إلى التفسير الأسطوري الذي يعتمد على القصّ (الحكي) الشفوي

الإغرائي مع سيطرة الخيال على الموضوع قيد الحوار أو المحاجّة، وفي المقابل التفسير العلمي يعتمد على الدّقة الموضوعيَّة مع تقديم الحجج وإجراء التجارب في الميادين الاجتماعيَّة أو في المعامل والمختبرات؛ ولهذا فالعلاقة بين التفكير الأسطوري والعلمي والفلسفي علاقة تضاد وتنافر وتعارض.

ومع أنَّ التفكير الأسطوري قد طويت صفحاته ثقافة وحضارة، ولكنَّ عقول بعض العباد لا زالت على مقربة منه، وهنا تكمن علّة الخيال غير الموضوعي، وبخاصّة عندما يحكي الإنسان عن نفسه وكأنّه البطل الوحيد، المتمكّن من خوض المغامرات والصّراعات متى ما حدثت، ومن ثمّ؛ فالأنا يتخيّل ما يتراءى له كيفما يشاء، ويقصص ما يشاء، في الوقت الذي لا تكون فيه قصصه على علاقة بالواقع.

إنَّ هذا الأمر يتعارض مع الفِكْر الإنساني الذي يكشف العلل بما ينتجه من معارف متجاوزة لذلك المتخيل، من خلال حُسن التدبّر والتفكير في المستقبل، والعمل على صناعته بدلا من المحكي خيالا؛ وبخاصّة بعد أن عرف الإنسان الرّياضيات والعلوم الفلسفية والتجريبيَّة ذات النتائج المقاسة حجّةً وبرهانًا، والتي من بعدها وبها تأسّست الدّولة المدنية؛ فحلّت العُملة محلّ تلك المقايضات العينيّة، وأصبحت البنوك مركزا استثماريا يدفع عجلة الإنتاج إلى المزيد، وأحدث التّبادل التّجاري نُقلة واسعة بين قارات العالم، وكأنّ العالم لا حدود بين قاراته ودوله. وتمكّن المواطن من إقرار دساتير وقوانين

كفيلة باحترام سيادته وحريّته وحقّه في التنقّل والتملّك، وانكشف اللثام عن تلك المعلومات التي كان بعض النَّاس يظنّها ثوابت الوجود، وهي: الماء الذي قال عنه طاليس: إنّه أصل الوجود. والنّار التي قال عنها إقليدس: إنّها أصل العالم، وغيرهما قال: إنّ أصل العالم: (هواء وتراب) ثمّ اكتشف أنّ العقل هو القوّة المحرّكة لعناصر الوجود الأربعة.

أمَّا نحن فنقول:

إنَّ وراء كلّ مخلوق خالق؛ فلا الماء، ولا النّار، ولا الهواء ولا التراب أصل الوجود، بل الوجود أساسه خالق، وهنا ينبغي أن نميّز بين الوجود، ومن أوجده (بين الكون ومن كوّنه)؛ فالوجود ظهور ما لم يسبق له وجود إلى حيّز المشاهدة والملاحظة، أمَّا الموجد: (المكوِّن) فهو من بيده أمر الكينونة.

ولهذا فالماء الذي قِيل عنه أصل الوجود، لا يزيد عن كونه جزءًا من وجودٍ أعظم، وهكذا النَّار والهواء والتراب؛ فهي جميعها لا تساوي إلّا جزءا يسيرًا من المخلوق الكوني الذي تغلب عليه الظلمة والفراغ والمجرات والطّاقة.

ومن هنا؛ فالماء لا يكون إلّا لاحقا لسابق: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[88]، أي: إنَّ الماء لاحق لوجود السّماوات والأرض؛ فلو لم تكن السّماوات والأرض ما كان الماء، الذي جاء لاحقا بغاية إحياء الشيء المراد

[88] الأنبياء 30.

إحياؤه في: (التراب)، ومع ذلك ليس كلّ التراب؛ فهناك من الكواكب والنّجوم الترابية ما لا ماء فيها؛ إذ لا قابليَّة للحياة إلى أن يشاء الله.

ولأنَّ الماء لا يكون إلّا لاحقًا على الشيء، خلق الله آدم وزوجه خلقا من تراب، ثمّ بعد ذلك تزاوجا؛ فكانت النّطفة ماء الحياة المستمدّ من الشيء السّابق عليها: (آدم وزوجه) {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا}[89]. أي: خلق من آدم وزوجة ماء: (نطفة)؛ فخلق منها بشرا، وهم السّلالة التي جاءت من النّطفة التي لو لم يكن الزّوجان ما كانت، وهكذا جعل الله الأحياء من الماء: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[90]، قال: (وجعلنا)، ولم يقل: (وخلقنا)؛ فالجعل يتعلّق بما هو مخلوق، أمّ الخلق؛ فهو إيجاد ما لم يكن قد خُلق؛ ولهذا فالأشياء المخلوقة هي في حاجة للماء؛ لتكسب حياة وحيويّة ونشوء وارتقاء، وهذا يدلّ على وجود الأشياء أوّلا، ثمّ جعل الماء فيها مُبعثا للحياة والنّمو.

إذن: فعندما يقول طاليس: إنّ أساس الوجود الماء فهو كمن يقول: لا عناصر للوجود سوى: (الهيدروجين والأكسجين) وعندما يقول إقليدس: إنّ أصل الوجود النّار فكأنه يقصر الوجود على: (العناصر الغازية والكربونية)، وكذلك عندما يقول الفيلسوف اليوناني أنكسيمنس: إنَّ أصل الوجود الهواء وكأنّه يقول: قد اقتصر الوجود

---

[89] الفرقان 54.

[90] الأنبياء 30.

على عناصر الهواء التي هي: (مجموعة من الغازات المختلفة)، وهكذا يرى الفيلسوف اليوناني أكزينوفانوس: أنَّ أصل الكون هو تراب الأرض التي لا تكون إلّا جزيئا من الوجود العظيم. ومن هنا، يلاحظ أنّ المدرسة الطبيعيَّة تُرجع الوجود الكوني إلى المادّة، في الوقت الذي فيه الوجود الكوني لا يقتصر عليها، فهو كما قدره بعض العلماء الفيزيائيين يحتوي على 5% مادة عادية كالنّجوم والكواكب والغازات والغبار الكوني، 25% مادّة مظلمة لم تكتشف بعد، 70% طاقة مظلمة[91].

ولهذا؛ فالوجود الكوني لم يكن مقتصرا على الوجود المادّي سواء أكانت المادّة: (ماء، أم نارًا، أم هواء، أم ترابًا، أم أنّها مجتمعة)، بل الكون مبنيّ على معطيات تتعدد ويصعب عدّها، سواء أكانت طاقة، أم مجرّات، أم فراغا وظلمة، أم نجوما وكواكب، وهذه جميعها تتمدّد بين المستحيل بلوغا، والمعجز نشوءًا ومعرفة، والممكن تيسيرًا وصعوبة، وهذا التفسير لا يختلف عمّا قاله فيثاغورس، الذي ذهب إلى أنَّ العالم عبارة عن أعداد رياضيَّة[92].

أمَّا أفلاطون فيرى: العالم الحقيقي هو عالم المثل الذي يوجد فوقه الخير الأسمى، والذي يمكن إدراكه عن طريق التأمّل العقلي والتفلسف؛ ولذا تعد فلسفة أفلاطون فلسفة مثالية مفارقة للمادّة

---

[91] كولين رونان، الكون، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1980 م.

[92] منتديات ستار تايمز، مدارس الفلسفة اليونانية ومناهجها، أرشيف الدراسة والمناهج التعليمية.

والحسّ؛ فهي تعد عالم المثل العالم الأصل، في حين العالم المادي عالم زائف. ولكن الفيلسوف اليوناني أرسطو ذهب إلى غير ذلك؛ فهو يرى أنّ العالم الحقيقي هو العالم الواقعي المادّي، أمّا العالم المثالي فهو غير موجود[93].

هكذا هو الفِكْر الفلسفي يتولّد فِكَرًا: (فكرة بعد فكرة)، ثمّ يعمل العقل على صوغها بما يمكّن من المعرفة المنظّمة للسّلوك، والممكّنة من العمل والارتقاء؛ ولذلك فتلك الفلسفات والرّؤى المختلفة والمتناقضة والمتضادة والهابطة والصّاعدة لو لم تمرّ البشريَّة بها، ما وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم من غزوٍ للفضاء وهي تأمل بلوغ المزيد؛ ممّا يمكّن من رتق السّموات والأرض جنّة.

وعليه:

يستند الفكر الفلسفي ارتقاء على تلك الفضائل الخيّرة، والقيم الحميدة المستمدّة من الأديان والأعراف الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، مع إضافة المنتج فِكَرًا وبحثًا علميًّا.

فالفكر الفلسفي يرسّخ قيمة الإنسان تعبيرًا، وسلوكًا، وعملًا، مع التقدير للمختلف، والقبول بالحوار والتعايش مع الغير، دون إكراه

---

[93] برتراند رسل، حكمة الغرب: عرض تاريخي للفلسفة الغربية في إطارها الاجتماعي والسياسي، ترجمة: د. فؤاد زكريا، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1983م.

ولا هيمنة ولا حرمان ولا إقصاء، وترسيخ قيم التسامح والاستيعاب والتقبّل والتفهّم، وتقدير الإرادة وممارسة الحريَّة.

ولهذا؛ فالإنسان الطّموح يعرف أنَّ المسافة واسعة بين نقطة الصّفر التي وضع قدميه عليها، وما يأمله ارتقاء، ومع ذلك يسعى ولا يأس في قاموسه العقلي؛ فيرسم الخطط وفقا لمنهجٍ مفتوح على كلّ الاحتمالات؛ حتى يتمكّن من معرفة: كيف يتعلّم؟ وكيف يبحث؟ وكيف يصوغ تساؤلاته وفروضه لِما يود بلوغه؟ وكيف يفكّك ما يعوق سبيله؟ وكيف يركّب ما تم تفكيكه؛ من أجل تحقيق أهدافه بسلام؟ ثمّ كيف يحدث النُّقلة إلى ما هو أفضل؟

ومن هنا، تلد الفلسفة منهجًا به يتمّ توليد الفكرة من الفكرة، وتوليد الحُجَّة من الحُجة، من أجل رؤية المستقبل والتطلّع إليه ارتقاء؛ فالمنهج لم يعدّ كما يظنّه بعض البحّاث قالبًا ثابتًا لصهر الأفكار مثل القوالب التي تُصهر فيها المعادن تحت درجات حرارة عالية، بل أصبح قواعد معيارية، بها تقاس الأقوال والأفعال والسلوكيات، وعلى ضوئها تُرسم الخطط المحدثة للنُّقلة والارتقاء المأمول.

فالمناهج التي تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض؛ لكي تجد مواضيع لتبحث فيها، هذه المناهج لا تزيد عن كونها مناهج اجترارِيَّة عقيمة؛ فهي كمن يَلُكُّ العلكة أكثر من مرة، وهي لا تُمكّنُ من توليد الفكرة من الفكرة، ولا المعلومة من المعلومة، ولا الأحدث من الحديث، ولا أكثر جدّة من الجديد، ولا الأنفع من النّافع؛

فالمناهج التي تُمكن من الارتقاء هي التي تجعل المجتمع بأسره في حالة حركة متجدّدة، وفي حالة تسابق ومنافسة وتطلّع من أجل بلوغ أمانيه وغاياته بكل شفافية مع أخذ الحيطة والحذر من كلّ انتكاسة.

ومن ثمّ؛ فالفكر الإنساني ارتقاء لا يسوّق المناهج الجاهزة التي تخلق التُّبع، بل يسوّق المناهج التطلّعيّة السبّاقة لتحقيق الأماني الإنسانيَّة وتطلعاتها المأمولة اتجاه كلّ ما من شأنه أن يحدث النُّقلة المأمولة.

إنَّ الفكر الإنساني الطّموح لا يستهين بالزّمان، بل يعطه قيمة؛ ويثمّنه ساعة بساعة خوفا من أن تزداد الهوة اتساعا بينه وبين الأمل المرتقب؛ فهو يخاف الزّمن، وبخاصّة المستقبل منه؛ ذلك لأنَّه يجهل ما يُخفيه، ومن ثمّ؛ فلا يثق فيه، كما أنَّه لا يثق في الماضي والحاضر؛ لأنَّ الماضي قد تركنا دون أن يتأسف علينا، ولا على الماضيين، وكذلك الحاضر مصرّ على ذلك بتنازله عنا ثانية بثانية، ولا يودّ الاستمرار معنا؛ ولهذا فالثّقة تنعدم في الزّمانين: (الماضي والحاضر)؛ ممّا يجعلنا لا نقصُر تفكيرنا عليهما إلّا لأخذ العبر والمواعظ؛ ولذا ينبغي أنْ نفكّر في غيرهما، ولا غير لهما إلّا المستقبل، الذي هو الآخر قد يغدر بنا إنْ لم نَحتَط من غدره؛ ولهذا فلا ثقة في الزّمن، بل الثّقة في العمل.

إذن: فيجب العمل دون توقّف؛ ذلك لأنَّ التوقّف قليلا يؤخّر كثيرا، وعلينا الأخذ بالمناهج التي تُمكننا من الارتقاء بعد أن تعلّمنا

كيف نتعلَّم؟ وكيف نفكّر فيما نفكّر فيه؟ وكيف نولّد الحُجّة من الحُجَّة؟ وكيف نكتشف أخطاءنا؟ وكيف نصلحها أوّلا بأوّل؟ وكيف ننتقل من التوقّف عند حدود الإصلاح إلى بلوغ الحلّ؟ ومن ثمّ؛ فعلينا ترك تلك المناهج التي تُبلغنا أو تُعلِّمُنا بما عَلِمت به، ولا تُحفِّزنا على الارتقاء.

وعليه:

ينبغي أنْ نفكّر بعمق حتى لا تضمر ذاكرتنا، وأن نقارن بين الدّقيق والأدق منه؛ حتى تنشط عقولنا، وتستعيد عافيتها التي تمكّنها من التفكير المتوقَّع وغير المتوقَّع ارتقاء، فالعقول دائمًا في حاجة لأن تُمرّن؛ حتى تمتلك القوّة التي تُلفت الإنسان لنفسه، وتُمكّنه من ملاحظة الآخرين وما يدور من حولها.

ومن ثمّ؛ فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذّاكرة ويخضعها للتقييم، ثمّ يقوّم حالته حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجل نفسه وأجل الآخرين.

فالإنسان إذا أراد ارتقاء فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الآخرين؛ حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح، ويتحدّى عقله تفكيرا في نفسه؛ حتى يدرك أسرارها وخفاياها، ومن ثمّ، يعرف أنَّ قوّة البصيرة بقوّة التفكير فيها، وهي لا تضعف إلّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة؛ ولهذا فالفكر

ارتقاء يمكّن الآخذين به من التفكير فيما يفكّرون فيه حتى يفكّروا في غيره.

ولهذا؛ فالارتقاء لم يكن نتاج العاطفة، بل هو نتاج حسن تدبّر لصناعة المستقبل المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، والممكّن من بلوغ الغايات العظام التي تجعل من الإنسان قيمة مقدّرة؛ فينبغي أن يرتقي الإنسان علما ومعرفة وخُلقا، وأسلوبا، وإلّا سيجد نفسه في منازل المستهلكين الذين يعيشون ليومهم عالة على جهود المنتجين والمبدعين وأهل الحُجّة والحكمة؛ فهم بهذه الأعباء يُجهدون المنتجين ويَشُدُّونهم للخلف؛ ممّا يجعل الفارق كبيرا بين الجهد المبذول من أجل بلوغ قِمم الارتقاء، والحاصل المنتج الذي تُنتجه الصّفوة العاملة والمتطلّعة ارتقاء.

ولهذا؛ فالجيوش والطّلبة مع أنَّهم حيويَّة المجتمع، فإنَّهم في الغالب مستهلكون؛ ممّا يجعلهم عبئا على جهود المتطلّعين لكلّ ما من شأنه أن يحدث النُّقلة والارتقاء، ومن هنا، وجب أن تكون القاعدة: تحويل الجيوش إلى ميادين التدريب والتأهيل والإنتاج، أمّا الاستثناء: أن يعدّوا مقاتلين متى ما دعت الضّرورة من أجل المحافظة على درجات سلمّ الارتقاء، وهكذا الطّلبة ينبغي ألا يقضوا جلّ وقتهم تعليما على أيدي الملقِنين، بل يجب قضاؤه في تعلّم العلوم الممكنة من الحياة ارتقاء مع تعلّم الخبرة والتّجربة الممّكنة من ميادين العمل المنتج والمبدع على أيدي المتطلّعين إلى ما هو أفيد وأعظم.

أمَّا الأطفال والمعاقين والعجزة؛ فحقّ الرّعاية والعناية مسؤوليَّة وطنية أولى، أي: إنَّ معرفة الحقيقة شيء مهم، ولكن الأهم أن تمكّن معرفة الحقيقة من معرفة الحلّ.

مراحل الارتقاء قاعدة واستثناء:

عبر التّاريخ والمنحنى التكراري للسّلوك والفعل البشري بين هبوط وصعود؛ فمع أنّ الإنسان خُلق ارتقاء: (سويًّا) على صراط مستقيم، لكنّ سلوكه وفعله انحدر إرادة عمّا خُلق عليه من ارتقاء واستقامة؛ فالإنسان لم يُخلق على الانحراف والحيوانية، بل خُلق في أحسن تقويم، عقلا وصورة، ولا مثيل له: {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[94]، ومع ذلك انحدر دونيَّة عمّا خُلق عليه من حسن قوام وتقويم، عندما خالف أمر ربّه الذي نهاه عن الأكل من تلك الشّجرة، ومن هنا، نلاحظ أنّ النقطة الصّفرية التي بدأ منها رسم المنحنى التكراري لسلوك الإنسان وفعله، لم تكن من دونيَّة إلى علوٍّ ورفعة، بل كانت من علوٍّ إلى دونيَّة، وهذه أوّل مخالفة (أوّل استثناء) والتي أعقبتها استثناءات كما هو مبين في الشكل رقم (1) الذي فيه الخط الأفقي يمثل المستوى القيمي، والخط العمودي يمثل المستوى الخَلقي.

ومع أنَّ السّلوك والفعل أخذا الاتجاه إلى الدونيَّة، فإنَّهما توقفا عند الخط الأفقي للقيم لحظة استغفار آدم عمّا ارتكبه من فعل،

---

[94] الملك 22.

وأقدم عليه من سلوك وعمل؛ فكان له الارتقاء حتى اصطفاه الله نبيا على الملائكة والجنّ والإنس (زوجه). ثمّ بقيت تعاليم آدم من بعده ارتقاء كما أنبأه الله وأعلمه بها بين أيدي بنيه رفعة وارتقاء، إلى أن انحدر أحدهم قيما يوم أن قتل أخاه بغير ذنب: (الاستثناء الثاني).

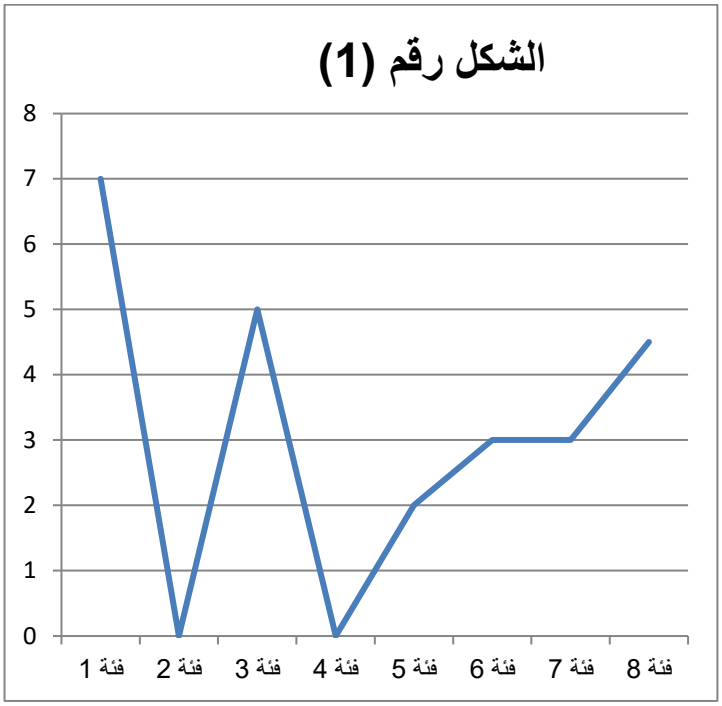

وظلت الحياة بين بني آدم بين من يرى الخير قيمة؛ فيتّبعه، ومن لا يراه كذلك؛ فيخالفه؛ فوُلد الصّراع بينهم يوم أن ظهر الأنا على حساب الآخر، ثمّ تعاظم بتعاظم بني آدم عددا وشهوة وحاجة، بداية من حياة الفطرة التي عاشها أبوهم جنّة، ثمّ حياة الاختيارات المتنوّعة التي استوجبت إيجاد نُظم تنظم العلاقات بين المختلفين والمتخالفين على ظهر الدّنيا؛ فكانت الحياة بينهم فوارق، عبيد وسادة، فقراء وأغنياء، بدو وحضر، طبقة عليا وطبقات دنيا، إقطاعيون وخدم؛ ولهذا ظل المنحى التكراري للقيم بين المختلفين

والمتخالفين على غير استقرار: (بين قاعدة واستثناء)، على الرَّغم من بعث الأنبياء والرّسُل لأقوامهم وشعوبهم وأممّهم وللكافّة، وسيظل الخلاف بين النَّاس ما ظلّت الحاجة والجهل والإقصاء والتهميش والهيمنة والظلم والعدوان.

وفي المقابل ستطوى الهوة بين النَّاس إشباعا للحاجات المتطوّرة، مع عدالة تُمكّن من ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمل المسؤوليَّات، وتحفّز على المزيد من البحث العلمي، وإلى جانب تلك المراحل الخَلقيَّة: (الفطرية) جاءت بوادر أخرى كان النَّاس فيها بين ارتقاء ودونيَّة (بين قاعدة واستثناء) فكانت مراحل تكوين الدّولة.

. مرحلة العبوديَّة:

ظهرت هذه المرحلة بعد انتهاء مرحلة الصّيد، وظهور الملكيَّة الخاصّة، والعمل في الزّراعة، فتكوّن المجتمع المشاعي الذي قبل بعض النَّاس فيه التكيّف ضرورة (استثناء)؛ حيث تحكّم الحاجة، وتسلّط الملّاك؛ فظهرت قيم جديدة على حساب كرامة الإنسان الذي قبِل العبوديَّة، وارتضى أن يبيع نفسه للغير (جهدًا ووجودًا) حتى أصبحت أسواق العبيد منتشرة بيعا وشراء.

ومن ثمّ، تطوّرت مرحلة العبوديَّة زيادة في الدونيَّة من بيع الجهد، إلى بيع الأبناء، ثمّ إلى بيع النّفس، وهنا يكمن الاستثناء، في مقابل القاعدة: (إنّ الإنسان لم يُخلق عبدا)؛ ولهذا تظل العبوديَّة استثناء في مواجهة الحرّية قاعدة.

وتنوّعت أسواق العبوديَّة بين من قَبل بيع بنيه ونفسه، أو بيعهم جميعا من قِبل مالكهم دون أن يكون لهم رأي حتى في الثّمن الذي سيباعون به سوقا، وكذلك كان أسرى الحروب عبيدا، يباع جهدهم ثمّ يباعون.

ومع أنَّ القاعدة الخَلقيّة تستوجب صون كرامة الإنسان، ولكنَّ الاستثناءات تعددت في زمن العبوديَّة، وقوّضت الحريَّة؛ فبعث الله الرّسُل آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، ومحرّضين على تحرير العبيد: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ}[95]؛ ولأنَّ الحرّيَّة هي القاعدة، والعبوديَّة هي الاستثناء جاءت الرّسالات تنزيلا، مرسّخة للقاعدة، ومقوّضة للاستثناء.

. مرحلة الإقطاع (feudalism):

بعد أنْ كانت الأرض وفقا للقاعدة الطبيعيَّة فسحة للنّاس تنقلًا ورعيا وصيدا، أصبحت إقطاعيات تحت سيطرة من يمتلك القوّة والنّفوذ استثناء، فيها جهد المنتجين على حساب ممارسة الحريَّة يباع ببيعهم في أسواق المزاد عبيدا، وفيها حيازة الأرض تتّسع، وكذلك التمدّد على حساب الغير سلما وحربا، وفيها الولاء للأشخاص

[95] النساء: 92.

والتكيّف معهم علّة من عِلل الحاجة؛ ذلك هو الإقطاع الذي يمثّل مرحلة من مراحل تأسيس الدّولة اقتصاديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا وحربيًّا؛ فالإقطاع أساسه امتلاك القوّة، ولا مجال فيه لأن يتمكّن أهل المنطق والقيم والفضائل الخيرة المستمدّة من الدّين من المنافسة والسيّادة؛ فكان حكم الاستثناء بدلا من حكم القاعدة الطبيعيَّة: (النَّاس خلقوا أحرارًا فليبقوا أحرارًا)؛ ولذلك يعدّ الإقطاع استثناء؛ لكونه وجودًا على حساب الغير: (جهدًا، وملكيَّةً، وحريَّةً).

مرحلة رأس المال:

رأس المال امتلاك ثروة من بَلغها بلغ التمكّن من توظيف جهد وأفكار الغير استثمارًا أو استغلالًا (سلبًا أو إيجابًا)؛ ذلك لأنَّ الغنى غاية النَّاس، وهذه قاعدة، أمّا الفقر فلا أحد يأمله، وإن حدث فهو الاستثناء: (الشذوذ عن القاعدة)؛ ولذلك فالنَّاس ارتقاء يأملون الغنى، وفي المقابل انحدارًا يعيشون الفقر والألم، ولا عيب في امتلاك رأس المال، بل العيب أن يتمّ استغلال النَّاس به، ومن ثمّ؛ فالعيب لا يلحق رأس المال، بل قد يلحق الكيفيَّة التي بها أصبح رأس مال؛ فإن كان شرعيًّا غير منهوب بأيّ أسلوب من أساليب التحايل والنّهب؛ فهو من حقّ مالكه عملا أو إرثا، وهو لا يتعارض مع قاعدة التملّك، أمَّا إذا كان نتيجة استغلال جهد الغير، أو على حساب وجودهم بأيّة علّة؛ فهو العِلّة في ذاتها.

ومن ثمّ؛ فالغنى ارتقاء غاية عظيمة، ينبغي السّعي إليها جهدًا وعملا واستثمارا، على ألا يكون على حساب جهد الآخرين، ولا على حساب حقوقهم.

ولأنَّ الإنسان غايته الارتقاء حتى بلوغ الجنّة؛ فمهما بلغ من النّعيم فهو لا يزال في حاجة لنعيم أعظم؛ ومن هنا فعليه أن يعمل كلّ ما من شأنه أن يمكّنه من بلوغ الجنّة نعيما وافرا، دون أن يغفل عن حقوق الآخرين فيما يمتلك من ثروة: (زكاة وصدقة وضريبة)، إلى جانب عدم غفلته عن أهميّة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة في تنظيم العلاقات، وبناء الدّولة الوطنيَّة.

وعلينا أن نميّز بين الاستغلال والاستثمار؛ فالاستغلال لا يكون إلّا على حساب جهد الغير، أمّا الاستثمار فلا يكون إلّا برأس مال مضاف إلى الجهد المشترك مع جهود الآخرين؛ لكونهم جزءا من العملية الإنتاجية والاستثمارية، وهنا يصبح العائد على ذوي العلاقات الاقتصاديَّة وفقا للمستثمَر: (ثروة وجهدًا)، وهذه هي القاعدة، أمّا الشذوذ عنها فلا يكون إلّا استثناء بلا مبررات، وبخاصّة عندما تستغل الجهود من قبل من يمتلك الثروة بلا عدالة.

ومع أنَّ جذور النّظام الرّأسمالي ضاربة في تلك الفلسفة الرّومانيَّة القديمة، التي رغبت امتلاك القوة وبسط النفوذ والسّيطرة، فإنَّها تطوّرت مع التاريخ من الإقطاع إلى البرجوازيّة ثمّ من بعدها إلى الرأسماليَّة المعزّزة للملكيّة الفرديَّة وممارسة الحريَّة.

ولأنَّ الغنى ارتقاءً رغبة بشرية؛ فبلوغه لا يعدّ شذوذا عن القاعدة، بل الشذوذ ألا يعمل الإنسان ليكون غنيا، وله من رأس المال ما له مشروع.

فالرأسماليَّة تبحث عن الرّبح بشتى الطّرق والأساليب المشروعة، وهذه قاعدة، وفي المقابل لا أحد يعمل بأمل تحقيق الخسارة؛ ولهذا فالخسارة هي: الشّذوذ عن القاعدة، ومن ثمّ فعلينا أن نميّز بين الخسارة، والرّبح، والرّبا؛ فالخسارة تسيء لرأس المال، وهي الاستثناء، وكذلك الرّبا استثناء؛ لكونه نتاج الاستغلال وآلامه، أمَّا الرّبح فهو القاعدةّ؛ كونه الزيادة المشروعة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً}[96]، أي: من حقّ الإنسان أن يحافظ على رأس ماله، ومن حقّه أن لا يخسر، ولكن لا حقّ له أن يستغلّ جهد الغير بما يسيء لأحوال النَّاس المعيشية والسياسية والاجتماعيَّة، ومن هنا فالقاعدة: (اعمل ما شئت من المشاريع المشروعة دون أن يترتّب على ما تُقدِم عليه من عمل ما يؤلم النَّاس)، ومن حقّك أن تكسب وتنافس جودة دون استغلال الآخرين، أو أن تكون مكاسبك على حساب معيشتهم أو كرامتهم.

إذن: فالقاعدة: العمل المشروع أساس المكاسب والغناء، والعمل غير المشروع شذوذ عن القاعدة، وإن كانت من ورائه مكاسب وغنى.

---

[96] آل عمران: 130.

المرحلة الشيوعيَّة:

لقد عَبَرت الإنسانيَّة التّاريخ بمراحل التغيير بين ارتقاء ودونيَّة، وكأنّها لم تستفد من تجاربها؛ ذلك لأنَّها لم تستطع طي صفحات الاستثناء ولن؛ ولهذا ظل مُنحنى الارتقاء التكراري معرّضا للانتكاسات، وسيظل.

ومع أنَّ مرحلة الشّيوعيَّة جاءت لاحقة على مرحلة الرأسماليَّة، فإنَّها لم تلغها، ولم تحلّ محلّها، بل جاءت تنظيرات لمجموعة من المفكّرين على رأسهم أنجل وماركس المرسّخان لمبادئ تأسيس الدّولة على قاعدة الملكيَّة المشتركة لوسائل الإنتاج، وحكم الحزب الواحد، المحاط بطبقة البروليتاريا، مع تفسيرهما المادّي للتاريخ، وتقييدهما للمنافسة الحرّة، وعدهما أنَّ الدّين قيدًا ينبغي أن يفكّ، كما أن تنظيراتهم ترى أنّ لكلّ فرد عمله وحسب حاجته، وليس حسب جهده، وأنّ الشيوعية تترسّخ بالقوّة وتعمّم اقتصادا وسياسية واجتماعا. وهم بطرحهم هذا، كمن يقول: اقلبوا القاعدة استثناء، والاستثناء قاعدة.

ولأنَّ المبادئ الشّيوعية تأسّست على مواجهة الإرادة: (القاعدة)؛ فهي قد تأسّست على الإكراه: (الاستثناء)؛ ولذلك سيظل حكم الحزب الواحد وإدارته للدّولة حكما استثنائيا؛ لكونه مخالفا لطبيعة المواطنة التي فيها الحقوق يجب تمارس عن إرادة، والواجبات تؤدّى عن رغبة، والمسؤوليَّات تحمل وإن كانت أعباء.

ومن ثمّ، يعدُّ الحكم الشّيوعي حكما استثنائيًّا؛ من حيث مواجهته للقاعدة التي لا ترى ارتقاء للدّولة إلّا بمشاركة مواطنيها سياسة واقتصادًا واجتماعا، مع مراعاة الخصوصيَّة للأفراد والجماعات والمجتمعات، ولا إكراه.

الفوضويَّة في كلّ المراحل:

مع أنَّ الاستثناء خروج عن القاعدة، فإنَّ بعض النَّاس لا يره إلّا حلّا كما هو حال الفوضويَّة، التي تعد من وجهة نظر برودون حلّا للمشكل السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وبخاصّة عندما تنكسر هيبة الدّولة وتحلّ محلّها الجماعات الحرّة التي لا قيود عليها سوى إرادتها ومشيئتها الخاصّة.

ولأنَّ الفوضويَّة استثناء، وبعض المفكرين يطالب بها حلًّا؛ فهي عبر التَّاريخ تهدّد الأنظمة والسّلطات، وتعد أسلوبًا ضاغطًا على مؤسّسات الدّولة، وهي دائمًا بمثابة المعارضة غير الديمقراطيَّة؛ لكونها خروجًا عن الفضائل والقيم: (خروج عن القاعدة).

وتتمركز فكرة الفوضويَّة على إلغاء الدّولة؛ بهدف تحرير الفرد من قيودها، وقيود المجتمع بأسره، ثمّ يرى برودون أنّ ما يفسد الحياة الاقتصاديَّة هو: نظام النقد والفائدة اللذان يؤدّيان ببعض الأفراد إلى استغلال الآخرين؛ فهو يدعو إلى استبدال هذه الأنظمة بعقود حرّة بين الأفراد والجماعات يتعهد الجميع على التمسك بها، ومن ثمّ، يحلّ

مكان الدّولة نظاما اتحاديا يقسّم السّكان بموجبه إلى جماعات سياسية صغيرة تنظم علاقاتها على أساس التعاقد الحرّ.

ويرى برودون أنّ الإنسان من طبعه يميل إلى التمسّك بالنّظام وقواعد العدل، وأن ميله هذا كفيل بتحقيق التفاهم والانسجام بين البشر، ولا مُفسد لذلك إلّا قيام الدّولة، ومن ثمّ يعدّ كل مواطن مشروعا لنفسه، ولا داعي للمؤسّسات؛ ولهذا قال الفيلسوف الألماني كاسبر شميدت: "لا يوجد شيء أعلى أو أسمى مني، إنّني أعلنها حربًا ضدّ كلّ دولة، حتى ضدّ أكثرها ديمقراطية"[97].

ومع أنَّ بعض المفكرين يعد الفوضويَّة نوعا من النّظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فإنَّ الفوضوية نظام خارج عن النّظام: (شذوذ عن القاعدة).

ولأنَّه شذوذ عن القاعدة؛ فسيظل شاذًّا عنها، وملازما لها، وأينما حلّت حلّ معها جنبًا إلى جنبٍ، ومع أنَّه الشذوذ عن القاعدة؛ فإنَّه المتكوّن من مجموع السّالب والموجب؛ ولذا فلا شذوذ إلّا في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع (سلبًا وإيجابًا).

ولأنَّ لكلّ قاعدة شذوذا؛ فلا استغراب أن يتمدّد الشذوذ استثناء كلّما شاخت القاعدة، ومن هنا يعد الشذوذ موقظًا للعقل انتباها؛ بغاية إعادة الاستقراء، وإضافة الجديد ارتقاء.

---

[97] رءوف عباس، أوراق هنري كوبيل والحركة الشيوعية المصرية، ترجمة: عزة كامل، الطبعة الأولى، سينا للنشر القاهرة، 1988 م.

ولأنَّه الشذوذ عن القاعدة؛ فلا يمكن أن يكون حلًّا، حتّى وإن كان على شيء من الإيجابيَّة.

وعليه:

لم تكن مراحل تنظيم العلاقات البشريَّة منفصلة مرحلة عن أخرى؛ فهي مراحل تتداخل بلا قطيعة، فحيثما كانت القاعدة كان الشذوذ استثناء؛ فلو أخذنا الدّين على سبيل المثال: لوجدناه منذ أن خُلق الإنسان الأوّل وهو لم ينقطع تنزيلا في كلّ المراحل التي مرّت البشريَّة بها ارتقاءً وانحدارًا، وكذلك لو أخذنا حياة الفطرة أو التقليد أو حتى زمن الأساطير؛ لوجدناها لا زالت في الأنّفس على قيد الحياة في أقوال بعض النَّاس وفي أفعالهم وسلوكيَّاتهم وأعملهم، وفي كلّ المراحل؛ ولهذا تستمدّ الخصوصيَّة أعرافها وأديانها، وتُكتسب هويّتها جيلا بعد جيل، والاعتزاز يملؤها ثقافة.

وبمراجعة مراحل التطوّر والارتقاء البشري، نلاحظ أنَّ الانحدار قد التصق أوَّل ما التصق بأوّل الخَلق الآدمي (آدم)، ثمّ التصق بأوَّل أبنائه نطفة، ثمَّ اتّسعت دائرة الانحدار فوضى مع تكاثر بني آدم، ولكن المواجهة مع الانحدار كانت جادّة باصطفاء الأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام؛ فكان الارتقاء إيمانًا بالحقّ ووجوب اتباعه، ومع ذلك ظلت المواجهة بين ما هو فطري وأسطوري، وما هو مُعجز؛ ممّا حفّز العقل الإنساني إلى توليد الفكرة من الفِكرة، فكان الارتقاء وعيًا في مقابل الانحدار جهلا، ومع ذلك ظلّت الفوضى

هي المتغيّر المتربّص بكلّ تقدّم وارتقاء؛ فحيثما تُبنى حضارة تُهدّ بأيدي بُناتِها، وحيثما تؤسّس دولة تسقط بأيدي بنيها: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاس}[98]. ولكن اليأس والقنوط لم يجد مكانا له في عقول وإرادة المؤمنين بأهميّة الارتقاء وضرورته وجودا؛ فكان التعلّم والتعليم من متغيرات الحياة ارتقاء؛ فجاءت النّهضة علما وإعمارا وإنتاجا وتنظيما؛ فكان غزو الفضاء فُسحة الاستكشاف العلمي لمن شاء أن يرتقي إلى ذلك المأمول الذي فقده آدم (العيش النّعيم)، وفي المقابل ظلّت الفوضى بألوانها المختلفة: (الثُلث المعطّل للإرادة)؛ فمرّة تأخذ صفة العبوديَّة، ومرّة تأخذ صفة استعمارية (احتلال الدّول)، ومرّة تأخذ صفة الجوع، وأخرى تأخذ صفة المظلومين، وهكذا تتولّد الفوضى من رحم الأنظمة، ومع ذلك فهي مرّة تؤدّي بأصحابها إلى الانحدار، وأخرى تؤدّي بهم إلى النّهوض.

فذلك الإنسان الأوّل (آدم) الذي خَلقه الله في أحسن تقويم، وعلّمه ما لم يكن يعلم، فكرّمه، وفضّله على كثير ممّن خلق، واصطفاه نبيا للملائكة والجنّ والإنس، كان وزوجه أساس التكاثر، والتناقض؛ فهو أساس الارتقاء والانحدار، والفوضى والنّظام، والقوّة والضّعف، والاختلاف والاتفاق، والخطأ والصّواب، ومع ذلك؛ فهو مصدر المعرفة الواعية بعد أن أنبأه الله وعلّمه؛ ولأنَّه كذلك فهل يصدق عليه القول: كان يأكل اللحم نيًّا، ولم يكن يعرف النَّار؟

---

[98] الرّوم: 41.

هكذا كُتب تاريخ الإنسان الأوّل، وكأنّه لم يكن آدم: (أوّل الخلق البشري)، تاريخ كُتب بلا وثائق، ولا شواهد دالة على ما كُتب؛ ومع ذلك أُخذ حكما، وكأنَّه مسلّمات، وفيه صورة الإنسان الأوّل رُسمت بعقل من ظنّ أنَّ أصل الإنسان الأوَّل قرد، ثمّ تطوّر، وهذا ما يخالف قوله: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}[99].

ولذا فالإنسان الذي خُلق على هذه الصّورة، وعلّمه الله الأسماء (الأسرار) التي منها النّار؛ فكيف يُقبل ما قيل عنه: لقد عرف النّار مصادفة، ومن يصدّق هذا القول، كمن يصدّق أنَّ النّار لم تكن اسما: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[100]؛ ولأنَّ الله علّمه الأسماء كلّها؛ فهو يعلم الأسماء والأسرار التي من ورائها بلا استثناء.

ومن ثمّ؛ فمع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء، فإنَّه انحدر رغبة وغفلة، ثمّ انتبه لأمره ارتقاء؛ فاستغفر لذنبه؛ فتاب الله عليه، وجعله من المكرّمين: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[101]. ومع أنَّهم المفضّلون، فإنَّ بعضهم غير مقدّرٍ لهذا التفضيل؛ فمنهم من ضلّ، ومنهم من اهتدى، وهم لا يزالون مختلفين وسيظلون كذلك.

---

[99] التغابن: 3.

[100] البقرة: 31.

[101] الإسراء: 70.

ولأنَّهم مختلفون وسيظلون كذلك؛ فهم في حاجة للالتقاء والحوار والجدل من أجل الاتفاق؛ ولهذا فالمختلفون هم الذين في حاجة للالتقاء، وليس أولئك المتفقين؛ فالمتفقون كلّما التقوا كرّروا أنفسهم؛ حيث لا جديد يضاف.

ولذا؛ فمن أراد أن يجد لنفسه مكانة وارتقاء؛ فعليه بالالتقاء مع المختلفين بهدف الاتفاق؛ حتى لا يكون الالتقاء وكأنّه غاية في ذاته؛ ثمّ عليه بالتذكّر ارتقاء؛ كي يتجاوز المتذكّر ما يعيق أو يسيء ويؤلم؛ فيأخذ بما يفيد من عبر ومواعظ وتجارب إنسانيَّة تفاديًا لما يؤزّم العلاقات أو يؤخّر التقدّم تجاه ما يفيد؛ ولذلك فالتذكّر يمدّ المفكّرين والمخطّطين بما يحفّزهم على بلوغ ما يجب الإقدام عليه ارتقاء.

ومع أنَّ التذكّر يرتبط بالموروث المعرفي والتّاريخي، فإنَّه بالنّسبة لمن خُلق أوّلا: (آدم) لا وجود له؛ لكونه لم يمرّ بمرحلة الحمل والطفولة والمراهقة؛ فهو قد خُلق على الرّجولة خلقا، وبالتّالي ليس له ما يتذكّر، ولكن بعد أن علّمه الله وأنبأه، أصبح لديه رصيدًا واسعًا من العلم والمعرفة؛ فيُمكنه أن يتذكّره، ليذكّر به الغير: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[102]؛ فتلك الأسماء التي أصبحت في محفظة عقل آدم، وتمّ استدعاؤها، أنبأ بها الملائكة حجة؛ فسلّم الملائكة لآدم بعد إن كان الرأي اختلافا.

[102] البقرة: 33.

ولكن على المستوى البشري من بعد آدم؛ فالتّجارب الإنسانيَّة متشابهة، ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يسهم في الوصول إلى حلّ، حتى وإن كان افتراضيًّا؛ لأنَّ كثيرًا من المشاكل تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها؛ فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيام.

وقد يكون الخوف حاضرا فيها؛ لكونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة؛ فالبحث عن اتفاق وحلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّز ويرشد بطريقة أو بأخرى إلى تجنّب ما يجب تجنّبه، وأخذ ما يجب الأخذ به؛ فيكون الاستشعار في هذا التوجّه قائمًا على درجة عالية من الحذر؛ كي تكون النّهاية ملبّية للخوف المجنّب من الوقوع في السُّفليَّة ومؤدّيا إلى ارتقاء مأمول.

وعليه:

وجب التدبّر بوصفه دراية عقليَّة يرتقي بحاضر أصحابه إلى ما يمكنّهم من الأخذ بما ينبغي في سبيل إحداث النُّقلة سياسةً واقتصادًا وعلمًا وحداثةً، نُقلة تطوي صفحات الحاجات المتطوّرة بمشبعات مُرضية وفقا للفرضيَّات التي تأسّست عليها؛ ممّا يجعل

المعالجة منطوية على إيجاد حلول سريعة يمكن من خلالها تفادي المشكلة، أو حلّها من جذورها؛ فالتدبُّر ارتقاء يمكّن من مواجهة المفاجآت التي يمكن أن تحصل دون أن تترك أثرًا سلبيًّا.

ويتّسع التدبّر ارتقاء ليكون حضوره ملبّيًا أو محتويًا للأحداث الحاصلة، إلاّ أنَّه لا يكون حلًّا نهائيًّا؛ فكلّ الحلول الآنيَّة قد لا تصلح لأن تكون حلولًا دائمة، لكنَّها في وقتها إن كانت ارتقاء؛ فهي لا شكّ تمثّل الحلّ الأمثل في دائرة الممكن الذي تكون نتائجه باهرة وغير متوقَّعة، كما أنَّ التدبُّر وإن كان آنيًّا إلّا أنَّه يفتح مدارك الإنسان رُقيًّا في البحث عن حلول تكمن فيها النّهاية المرجوة، التي تتّسع لكلّ المفاجآت، التي يمكن أن تحدث.

أمَّا التفكّر ارتقاء؛ فهو الذي لم يكن منزويًا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة التأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مسهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول ارتقاء.

ولأجل النّهوض ارتقاء، وجب المزيد من البحث العلمي الممكن من المعرفة الواعية التي بدورها تُمكّن من الإسراع في طي الهوة بين المأمول والأمل؛ وذلك بما يطوي مشاعر الخوف طمأنينة، ويخلّص من الحيرة حلّا بعد تأزّم؛ فالبحث العلمي ارتقاء يستوجب أسلوبًا مرنًا، وطريقة تستوعب التَّاريخ تجربةً ومنهجًا ووسيلةً.

ولأنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم؛ فليس له بدّ إلّا المحافظة على حُسن تقويمه، وهذه قاعدة، ولكن إن انحدر استثناء، وبأيّة علّة فليس له إلّا النّهوض، وهذه قاعدة أيضا.

ولأنَّ الانحدار بين قاعدتين: (حُسن الخَلق، وضرورة الارتقاء)؛ فهو باق ما دمنا باقين، وله الثلث في حياتنا من المورث انحدارا؛ ولهذا فلا داعي للقلق بما أنَّنا نرث الثلثين: (خلقا وارتقاء)، ولكن هذا لا يعني: أن نظل كمن ترك له أبوه إرثًا ولم يستثمره؛ فانتهى صفرًا.

ولأنَّ لكلّ قاعدة شذوذًا؛ إذن: فلا إمكانيَّة لبلوغ الحلّ كمالًا؛ فتلك الجهود عبر التّاريخ، وهذه الجهود، ستتلاقح ارتقاء بغاية إنتاج الفِكْر الممكن من إشباع الحاجات المتطوّرة.

ولأنَّ الارتقاء رغبة وأمل، إذن: فسيظل أملا، ولا يُمكن أن يلاحق إلّا بالعمل إنتاجًا وإعمارًا وبناءً وبحثًا علميًّا، مع الاهتمام بالقيم التي تنال التقدير من النَّاس.

الارتقاء عملًا:

الكلمةُ مهما عظمت إن لم تتجسّد في سلوك يدفع إلى العمل المنتج تظلّ كلمة في حاجة للحياة، ولا حياة لها إلّا العمل، ولكن أيّ عمل؟ إنَّه العمل ارتقاء: (بناءً وإصلاحًا وإعمارًا)، والعمل ارتقاء هو إنشاء الشيء من الشيء، كما أنشأ نوح عليه السّلام سفينة النّجاة من جذوع الشّجر إبداعا.

وهكذا جميع الأنبياء عليهم السّلام أرسلوا للنّاس من أجل الهداية والعمل ارتقاء؛ فكانت القيم الحميدة والفضائل الخيّرة جنبا إلى جنب مع الإصلاح والبناء والإعمار ارتقاء عبر التّاريخ؛ فالإنسان الأوّل الذي خُلق في الجنّة رأى الارتقاء بأمّ عينه، بل عاش الارتقاء حياة نعيم، ولكن بأسباب المخالفة والمعصية ارتكب خطأ فأخرج به هبوطا من الجنّة إلى الحياة الدّنيا، والتي من بعدها أصبح واضعا نصب عينيه أمل العودة إلى تلك الجنّة، التي ضاعت من بين يديه وهو يتحسّر، بما أقدم عليه إرادة، حتى وإن كان بأسباب الإغواء، ولكن بعد أن استغفر ربّه، ظل يعمل من أجل العودة إلى ذلك العيش الرّغد الذي حُرم منه بما ارتكبه من فعل منهي عنه؛ ومع ذلك ساد الصّراع بين النَّاس إلى يومنا هذا (بين من صدّق الرّسل ومن كذّبهم)؛ فمن صدّق الرّسل يأمل كما أمِلَ الإنسان الأوّل الارتقاء إلى الجنّة التي عاشها حياة فردوس، ومن لم يصدّق فلا يرى جنّة، وهنا تكمن العلّة.

وهكذا؛ فالإنسان لم يقف عند ما يأمله، بل تجاوزه بالعمل حتى صعد إلى القمر الذي كان يعتقد أنّه الجنّة، ثم تجاوز القمر؛ كونه لم يكن كذلك، فغزى الفضاء اكتشافا، وهو في سعيه لم ييأس ارتقاء من بلوغ ما هو أعظم، ولا غاية له من وراء ذلك إلّا بلوغ الجنّة، إنّها رسالة الأنبياء عليهم السّلام؛ فمن أخذ بها ارتقاء، أخذ بما يجب الأخذ به، ومن لم يأخذ بها فلن يبلغ التقدّم والارتقاء المحقّق لإشباع الحاجات المتطوّرة، وبناء الحضارة التي ترتقي بصُنّاعها إلى صناعة المزيد.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء خَلقًا، فإنَّه لم يحافظ على ارتقائه؛ فأُهبط به من علوٍّ إلى دنيا، ومع ذلك عيناه لم تفارق السّماء، ظلّت تبصر هناك بأمل العودة، وهذا الأمر هو الذي حفّزه على العمل ودفعه إليه ارتقاء.

إنَّ الإنسان لو لم يكن مؤهلا للارتقاء، ما فكّر وتدبّر حتّى تمكّن من اقتناص الفكرة التي مكنته من غزو الفضاء وهو يأمل في المزيد.

إنَّ ما بلغه الإنسان من ارتقاء علمي وثقافي وحضاري يؤسّس قاعدة عريضة للمزيد المعرفي الممكن من الإصلاح والبناء وقبول التحدّي من أجل الأفضل والأفيد والأنفع والأرقى.

وستظلّ الفكرة فكرة مجرّدة إلى أن تتجسّد في سلوك أو فعل ينجز عملا، يشبع حاجة، والعمل المشبع للحاجة المتطوّرة هو العمل المؤسّس على الفكرة ارتقاء، التي تتجاوز التوقّف عند حدود الإصلاح إلى بلوغ الحلّ؛ حيث لا تأزّم من بعده.

ولأنَّ الفكرة الرّائدة تقود إلى العمل المبدع؛ فالعمل المبدع بداية قد يصفه بعض النَّاس بالمستحيل على الرّغم من تحقّقه مشاهدة وملاحظة؛ فالهبوط على القمر، بعضهم كذّبه بداية، ولكنّه لم يصمد في تكذيبه؛ لكونه أصبح حقيقة لا تُخفى.

ومن ثمّ؛ فالصّعود إلى القمر يعدّ عملا من أعمال الخوارق التي بإمكان العقل البشري أن يبلغ ما هو أعظم منه، فالإنسان الذي

خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المحقّق للخوارق وفقا لدائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، ولا استغراب، ولا مفاجأة، بل الاستغراب ألا يرتقي عقل الإنسان إلى اقتناص الفكرة الممكنة من الارتقاء الأعظم.

وهنا، أقول:

الجنّة بين أيديكم؛ فاعملوا يا بني آدم من أجلها، فاغزوا الفضاء بكلّ الخوارق التي بإمكانكم العمل عليها والعمل بها؛ فبلوغ الجنّة غير مستحيل، بل المستحيل أن لا تعملوا ارتقاء من أجل بلوغها.

إنَّني لا أقول مواعظ، بل لِمَ لا نتعظ، ونتدبّر أمرنا حتى نتمكّن من بلوغ الخوارق ارتقاء؟ ومن يرى غير ذلك فكأنّه لم يُخلق بصيرا، وليس له من الحواس ما يمكّنه من خَلق الخوارق وتجاوزها بخوارق أكثر ارتقاء؛ فمن يغفل عن ذلك فكأنّه قد غفل عمّا بنته الحواس وما ستبنيه من حضارات، فالتذكّر يربط العقل بما أنجزته أيدي النَّاس، وبما غفلت عنه؛ ليتدبّر حاضره، ويفكّر في مستقبل يستوجب رسم الخطط الممكنة من الخوارق في دائرة الممكن.

وعليه:

فالإنسان مؤهّل للارتقاء عقلًا وحسًّا؛ فهو يتذكّر؛ ليتّعظ ويُصلح، ويتدبّر؛ ليبني وينتج، ويفكّر؛ لإيجاد خارقة بها يصنع مستقبلًا راقيًا، يَرتق الأرض بالسّماء.

ومن ثمّ؛ فمن أراد أن يكون له شأن؛ فليعمل على تحقيق المكانة قيما وفضائل، وإذا أراد الإنسان أن يرتقي قيما وفضائل؛ فليأخذ بمفاتيح العلم، ويبدأ إصلاح حاله من حيث هو؛ حتى يهيئ نفسه ويتأهب للعمل من أجل تحقيق ما ينبغي أن يكون عليه ارتقاء.

ولكي يبلغ الإنسان مأموله قيما وفضائل؛ فعليه أن يكون قدوة حسنة لبني جنسه، فإذا حكم عدل، وإذا شهد شهد حقًّا، وإذا عاهد أوفى، وإذا قال صدق، وإذا عمل أحسن عمله، وإذا تعلّمَ علّمَ، وإذا اكتال أوفى، وإذا رأى فتنة بين النَّاس أصلح، وإذا غضب تملّك نفسه، وإذا ذُكِر بخيرٍ فعليه بالمزيد، وإذا ذُكر بسوءٍ فليصفح وليعفو.

ولذلك؛ فالتمسّك بالقيم كونها قيمًا، لا يفيد، بل المفيد العمل بها قولا وسلوكا؛ ولهذا ينبغي أن يتشرّبها النشء تربية وتعلّمًا وتعليمًا؛ حتّى يجسدوها سلوكًا كما جسدها أهل القدوة الحسنة.

فالارتقاء حركة دؤوبة، يتحقّق عبر التّاريخ بالجهد الرّصين والعمل المتّصل، الذي منه تؤخذ العبر، وتستمدّ المواعظ، وتنقل التجارب النّاجحة شواهد؛ فالارتقاء لا يحدث فجأة؛ فهو مثل الوليد، يولد وهو في حاجة للرّعاية والعناية، ثمّ يكسب قوّة تدفعه إلى تحقيق ما هو أعظم، وهو كالبناء بدايته وضع حجرة على الأرض، ثمّ يصبح صرحا شامخا وكأنّه يريد أن يفتق الأرض بالسّماء ثانية؛ فهكذا هو الارتقاء تطلّعا يجسّد الطموح، ويمكّن من بناء حضارات

أهلها يسودون ثمّ يفنون، وتبقى الحضارة تاريخا متكئا على الارتقاء علما وفكرا وقيما وفنّا وثقافة وإعمارا وبناء.

ولأنَّ التاريخ البشري مليء بالتّجارب النّاجحة، وكذلك الفاشلة، فهو قد مرّ بنشوء حضارات سادت، ثمّ بادت، وحلّت محلّها حضارات أخرى؛ ففي تلك الأحقاب سادت حضارة عاد وثمود، ومن بعدها حضارات الغرب، وحضارة الفرس، وحضارة الإسلام والعرب، واليوم حضارات الشّعوب تتداخل لتسود القرية الصّغيرة؛ فهي على الرَّغم من تنوّعها، ولكن، وكأنّها حضارة أمّة واحدة، إنَّها تقدّر الخصوصيَّة، وتُمكّن من الاندماج علما ومعرفة، وتقنية وإعمارا، وتؤكّد قيمة الإنسان في ممارسة حقوقه، وأداء واجباته، وحمْل مسؤولياته وبكلّ شفافيَّة.

ومع ذلك فالإنسان دائما في حاجة للارتقاء؛ فهو يسعى من أجل حياة أكثر أمنًا، وأكثر نعيمًا، وأكثر عدلًا، وأكثر رقيًّا؛ فقيمة الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، تستوجب تقديرًا عاليًا، ورعاية صحية متقدّمة، وتعليمًا يخلّص من أيّ تأزمات تحدث، ونُظم تُمكّن من التمدّد بكلّ حرّيَّة دون أن يحدث أيّ تماسّ مع تمدّد الآخرين بكلّ حرّيَّة.

ولكن هذه لن تتحقّق ما لم يرتقِ الإنسان عن مثيرات الشّهوة، وإغواءات النّفس، ومغريات الحياة الدّنيا: (السُّفليَّة)، وتفضيلات الأنا على حساب الغير.

ولذلك؛ فالاختلاف والخلاف لن ينقطعا بين النَّاس بما أنَّ هناك من يرى القيم والفضائل أساس العمل والتقدّم والارتقاء، ومن يراها لا تزيد عن كونها قيودا ينبغي أن تزال متى ما تعارضت مع المصلحة الخاصّة. ومن ثمّ؛ فالرّغبة في بعض الأحيان تتمركز على (الأنا) أنا ومن بعدي الطوفان، وهنا تكمن العلّة.

وحتى لا تكون العلّة نهاية المطاف؛ فينبغي بلوغ الحلّ الذي يحتوي في مضمونه قبول الآخر (هو كما هو)، والعمل معه (من حيث هو)، من أجل الارتقاء سويّا إلى مستقبل مأمول؛ فالفرد وإن خُلق فردا فهو لم يُخلق وحيدًا؛ ولهذا لا ينبغي أن يفكّر وحيدًا، ولا ينبغي أن يعيش وحيدا، بل ينبغي أن يفكّر حتى يعرف كيف يفكّر جماعيًّا، وأن يعمل مع الآخرين ارتقاء بغاية ما يجب.

إنَّ العمل والسّلوك لا يكونان إلّا نتاج قرار في دائرة الممكن، والقرار سيظل مجّرد تصميم وفقا للرّغبة إلى أن ينفّذ بمسؤوليَّة؛ ولكي يتمكّن الإنسان من اتخاذ قراره عن وعي؛ فعليه بمعرفة العلاقة التي تربط قوّة قراره بقوّة اتخاذه؛ فقوَّة القرار تكمن فيما يحقّقه من فوائد، وما يترتّب عليه من ارتقاء مأمول، وما يحدثه من مفاجآت موجبة، ومن ثم فاتخاذ القرار ارتقاء يُمكِّن من إحداث النُّقلة.

قاعدةُ النّظريَّة

تأسّست النّظريَّة على دعائم ثلاثة:

. المستحيلُ خَلقًا.

. المعجز نشوءً.

. الممكنُ ارتقاءً.

وكلّ منها مؤسّس على اللحظة الصّفريَّة؛ إذ لا شيء يُخلق أو ينشأ وينمو أو يرتقي إلّا في لحظة الصّفر وجودًا، والتي من بعدها يصبح الزّمن مستوعبًا له بداية ونهاية.

ولأنَّ الصّفر نقطة البداية فكذلك هو نقطة النّهاية؛ فالكون قبل أن يكون كان الصّفر دلالة على عدم وجوده، ثمّ بدأ تمّددا إلى النّهاية التي لم يصلها بعد، وهي التي سيقف عندها صفرا؛ فالصّفر لا يدلّ إلّا على وجود ما هو أعظم؛ ولذلك فهو يشير إلى وجود الأهم والأعظم بداية ونهاية؛ إذ لا شيء يخلق نفسه؛ فلو كان للشيء إمكانيَّة خلق نفسه، لكان الصّفر أوّل الخالقين لنفسه؛ ولهذا فالصّفر نقطة البداية لكلّ وجود، وهو نقطة نهايته، ومن ينطلق من الصّفر بداية لا بدّ وأن يقف عنده نهاية.

ومن يقول: كيف يكون الصّفر نقطة البداية والنّهاية، ولا يوصف بوجود؟

أقول:

لا يعدُّ الصّفر وجودًا؛ كونه لا يزيد عن متفق عليه تسمية؛ إذ لا شيء وجودًا.

المستحيلُ خلقًا

هو ما ليس بيد البشر، وغير ممكن الحدوث على أيديهم؛ فلا يُفعل من قِبلهم، ولا إمكانية لبلوغه، ولكن لو لم يكن ما كنّا، ولأنَّه كائن؛ فلا إمكانية لتجاوزه، ولا إمكانية للقفز عليه وكأنَّه لا وجود. إنَّه الحائل بين الممكن النّسبي (كلّ ما هو بيد المخلوق) والممكن المطلق الذي لا وجود للصّفر فيه، وهو لا يكون إلّا بيد الخالق.

فالمستحيل لا يكون إلّا حيث لا تكون الإمكانية، وهو ليس بالصّعب؛ فالصّعب يمكن بلوغه في دائرة الممكن غير المتوقَّع، أمَّا المستحيل فلا إمكانيَّة؛ حيث وجود الصّفر بداية ونهاية.

والمستحيل لا يُوجِدُ نفسه ولا يخلقها، بل لا بدّ من خالق من ورائه، إنَّه القوَّة التي لا تكون إلّا بيد القوي، الذي لا يُفعل المستحيل إلّا بأمره، ومع ذلك فالمستحيل أمر في ذاته، حيث يقف المخلوق عند حدّ لا يدرك من بعده شيء سوى الوجود الذي لا يكون إلّا بفعل الفاعل الذي جعله وجودا؛ فالفاعل لو لم تكن بيده القوَّة المطلقة ما كان المستحيل فعلا مستحيلا.

فالكون لو لم يكن عملًا مستحيلًا ما كان انفجاره أو فتقه عظيمًا، ومع أنَّ المستحيل شيءٌ يتحقّق، فإنَّه لا يوصف بشيء، أي: لو لم يكن المستحيل شيئًا ما تحدّثنا عنه، ولأنَّه شيء ونتحدث عنه؛

فهو يشغلنا حيرة تدفعنا تجاه معرفة مَن ورائه؛ فنحن نقف عاجزين أمام توصيف المستحيل الذي مهما تدبّرنا أمره فليس لنا إلّا التسليم، الذي يقرّ بوجود واجد له، ولا يكون إلّا أعظم منه؛ ومن ثمّ فلا يوجد شيء، أو يخلق لو لم يكن من ورائه خالق.

ومن هنا، افترق البعض القليل من النّاس مع البعض العظيم؛ فالقليل منهم وقف عند معجزة المستحيل في ذاته، أمَّا معظم النَّاس؛ فلا يؤمنون بعظمة المستحيل إلّا بعظمة فاعله المطلق الذي خلقه حائلا لا يخترق.

ولأنَّ المستحيل نتاج طاقة وقوَّة فهو فعل يُفعل؛ فينتج عملًا قابلًا للملاحظة والمشاهدة، ولأنّنا نقف أمام المستحيل عاجزين؛ فَلِمَ لا نقف أكثر عجزًا أمام الفعّال له؟

فعلماء الفيزياء اكتشفوا أنّ الكون يتمدّد متسارعا، وهم عاجزون عن إيقافه، بل هم عاجزون عن قياس سرعة تمدّده، كما أنَّهم عاجزون عن معرفة نقط صفر النّهاية التي سيتوقّف عندها؛ ومع ذلك يرى البعض أنَّ الكون يتمدّد متسارعا، ولا شيء وراء تمدّده متسارعًا، أي: لا إله من ورائه، وكأنَّه تمدّد بلا غاية.

ومع ذلك أجمع علماء الفلك والفيزياء على أنَّ للكون نهاية، وليس له بدّ إلّا بلوغها، وهي الانكماش أو التجمّد أو الانفجار الذي ينهي تمدّده المتسارع ويقفه عند حدّه، أو يكون سببًا في إعادة تشكيله من جديد، أو كما نرى نحن إعادة رتقه مع الأكوان الأخرى التي سبق

وأن فُتقت؛ لتعود إلى حالتها الطبيعيَّة التي خُلقت عليها عوضًا عن الحالة التي أصبحت عليها طِباقًا.

وبما أنَّ الفزيائيون واثقون من نهاية الكون؛ فالسؤال:

من الذي وضع له نهاية؟ ثمّ كيف وضع الكون لنفسه حدًّا وهو لم يصل إليه بعد؟

أقول:

كلّ ما قيل في هذه الخصوصيَّة ليس بحكم علميٍّ، بل مجرّد آراء لا تتعدّى نظرات أصحابها الذين انبهروا بما رأوه من مستحيلات حتى ظنوا أنَّها الخالق؛ وهم بهذه النظرة، كمن لا يميّز بين الخالق وما خَلق. ولكن وفقًا لقاعدة المستحيل المؤسّسة على خَلق الشيء من لا شيء؛ فلا شيء إلّا ومن ورائه مشيء، وسيظل الأمر كلّ شيء من ورائه مشيء حتى بلوغ المستحيل الذي لم يكن من ورائه إلّا المستحيل الذي يؤدّي بالواعين إلى التّسليم.

ومثلما يكون وراء كلّ شيء كما هو حال بني آدم الذين هم من نطفة، وآدم من تراب؛ فكذلك يكون وراء كلّ مستحيل يشاهد ويلاحظ مستحيلٌ لا يمكن مشاهدته ولا ملاحظته، مع أنَّه يُدرك استحالة؛ فالمستحيل كفعل يتحقّق عملا، فهو: مثل خلق الكون، والحياة والموت والشّروق والغروب، أمَّا المستحيل كذات؛ فلا يتجسّد في شيء يمكن أن يكون من ورائه شيء آخر؛ فيصبح التسليم به إعجازًا؛ حيث لا شكّ في وجوده، والمستحيلات تتحقّق بين أيدي النَّاس في كلّ

جزئية من الزّمان والوقت ولا أحد يستطيع إيقافها أو الحدّ منها؛ ولذا فمعرفة المستحيل تُمكّن من معرفة مستحيلات أعظم حتى بلوغ المستحيل مستحيلًا.

فالكون الذي قالوا عنه: خُلق من لا شيء ولا خالق من ورائه؛ فبقولهم هذا يعترفون بوجوده، والخالق من ورائه، وإلّا لماذا قالوا: (خُلق من لا شيء) فكلمة (خُلق) تعيد أمر الخلق للخالق، وليس للشيء المشار إليه بأنَّه قد خُلق من لا شيء.

ولأنَّ وجودَ الكون شيءٌ مستحيلٌ؛ فلا شكّ أن من ورائه ما هو أعظم استحالة، وهنا يكمن القصور بين إدراك المستحيل الأوَّل: (الخالق) وما يراه المستحيل اللاحق (الإنسان) الذي خُلق مستحيلًا؛ فالإنسان مع أنَّه خُلق مستحيلًا، فإنَّه لا يخلق المستحيل؛ ولهذا فالقاعدة:

(من يَخلق المستحيل لا يُخلق).

ولأنَّ من يَخْلق المستحيل لا يُخلق، والكون خَلقٌ مستحيلٌ؛ إذن فالمستحيل (الكون) يُخلق وخالقه لا يُخلق؛ ولهذا كان خلق الكون مستحيلا مثله مثل أيّ مستحيل.

والقاعدة الخلقية تقول:

(المستحيل قوَّة تَخرق ولا تُخرق).

ولأنَّ المستحيل قوَّة اختراق لكلّ قوَّة وإن اجتمعت، فقوَّة الكون تمدّدًا وتسارعًا ستقف وتنتهي انكماشًا أو انفجارًا عظيمًا، أو رتقًا أعظم، وهذا يدلّ على وجود مسيّرٍ للمستحيل، وموقفٍ له، أو مفجّرٍ، أو راتقٍ له؛ إذ لا استحالة أمام الفعل المستحيل.

ومن ثمّ؛ فالتوقّف عند المستحيل عن وعي يمكّن من عدم الوقوف عنده نهاية؛ فالمستحيل فعل لا يتحقّق إلّا وفق مشيئة فاعله، وهو الذي ينبغي أن يدرك بمشاهدة وملاحظة مستحيلاته؛ حتى يدرك أنَّ إدراكه مشاهدة وملاحظة هو الاستحالة بعينها؛ ولذلك فالقاعدة الخَلقيّة تقول:

(المصوِّرُ المطلق يرى ولا يُرى).

ومن هنا؛ فلا إمكانيَّة لرؤية المصوِّر المطلق؛ كونه لا يُصوَّر؛ ولهذا فخالق الشيء لا يمكن أن يكون الشيء؛ ذلك لأنَّ الشيء يُخلق والمشيء لا يُخلق.

ولأنَّ المشيء لا يمكن أن يكون شيئا، إذن: فكيف للكون كونه شيئًا أن يكون مشيئًا لخَلق ذاته؟

هذا ما ارتأه بعض علماء الفيزياء الذين وقفوا على معجزات الخالق وكأنَّها خالقة لنفسها، ومن لا شيء، وفي هذا الشأن وكأنَّهم يقولون: نحن خُلقنا شيئًا من لا شيء في الوقت الذي هم فيه يعلمون أنَّهم قد خُلقوا من ترابٍ، وإلّا كيف يقبلون بخلقهم من تراب وهم يعلمون

أنَّ أباهم آدم لم يخلق نفسه، وهو من تراب، أي: بما أنَّ آدم من تراب، ولم يكن ترابًا فمن الذي خلقه آدمَ؟

إنَّ هذه القاعدة تسري بالتّمام على خَلق الكون الذي قالوا عنه: إنَّه من ذلك الانفجار العظيم لتلك الذّرة التي لم يقولوا عن خلقها شيئًا، وهي التي لو لم تُخلق ما كانت ذرة، وما انفجرت كونًا عظيمًا كما يدّعون بلا دليل سوى وجود أثرٍ يشير إلى الانفجار، أو يشير إلى ما يشبه الانفجار، في الوقت الذي قال فيه الخالق غير ذلك: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[103].

وبناء على هذا القول تساءلنا:

أيّهما أولى: أن نأخذ بقول الخالق، أم أن نأخذ بقول المخلوق؟ ومع ذلك قبلنا قول المخلوق لنأخذ بقول الخالق.

فالخالق الذي خَلق الكون وكوّر فيه النّجوم والكواكب كما كوّر منه الأرض التي خُلق الإنسان الأوّل من ترابها عندما كانت مرتقة في السّماوات جنّة، قال: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}[104]. فكيف بمن لم يكن سابقًا على قوله تعالى، أن يقول: إنّ الكون خَلق نفسه؟

وإذا سلّم من سلّم بهذا القول؛ فسيجد نفسه في مواجهة مع خلق نفسه التي لم يخلقها، وبتسليمه هذا ليس له بدّ إلّا الاعتراف بأنَّه لا

---

[103] الأنبياء: 30.

[104] الزّمر: 62.

إمكانية أن يخلق الشيء نفسه، أي: كيف لمن يعرف أنَّه خُلق من نطفة أن يقول شيئًا غيرها؟

ولأنَّ قاعدة الخلق تقول: الشيء يُخلق ولا يَخلق.

إذن: فمن خُلق من نطفة ليس له بدّ إلّا استمداد قاعدة خلقه من شيء: (تراب أو نطفة) ليستقرأ بها خلق الشيء الذي لا يمكن أن يخلق نفسه. إنَّها المسلّمة لمن يدرك أنَّه لم يَخلق نفسه؛ لكونه يدرك خلقه من النطفة التي من قبلها يعلم أنَّها لولا التزاوج ما كانت، وكذلك من قبلها يدرك أنَّ أبويه: (آدم وزوجه) لم يكونا من نطفة، وهنا تكمن العلّة التي قفز عنها بعض من علماء الفيزياء بقولهم: إنَّ الكون خلق نفسه ولا خالق من ورائه.

ومع أنَّهم يؤمنون بخلق الأشياء، ولكنّهم عندما وقفوا عند أكبرها: (الكون)، قالوا: إنَّه شيء، ولكنّه خالق، وهذا ما يتعارض مع قواعد الخَلق:

. هيئة الشيء تسبق الشيء وجودًا.

. وراء كلّ شيء مشيئة.

. وراء كلّ مخلوق خالق.

. الخالق يرى ما خلق، والمخلوق لا يرى خالقه.

ولذا؛ فالكون لو لم يكن له مكوِّن ما كان كونًا، والخَلقُ لو لم يكن من ورائهم خالق ما خُلقوا، والعلم لو لم يكن من ورائه العالم ما عُلّم: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[105].

وعليه:

فالمستحيل فعل، والفعل لا يشاهد ولا يلاحظ إلّا إذا تجسّد في عملٍ؛ ولذلك فالمستحيل طاقة تُمكّن من إيجاد ما لم يسبق وجوده؛ ومن ثمّ؛ فالمستحيل فعل أوجد كونا متمدّدا ومتسارعًا في تمدّده، ثمّ خُلق منه وفيه ما خلق مستحيلًا، وكلّ ما خُلق استحالة، لا يُخلق ممّن لا يتجاوز جهده دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع.

ولأنَّ الكون خُلق خَلقا مستحيلًا، إذن: فلا إمكانية لخلق كون مثله إلّا من الذي خَلقه مستحيلًا، ومن هنا، استقرأ علماء الفيزياء والفلك وجود أكوان أخرى خارج كوننا المتمدّد تسارعا، ومع أنَّهم اكتشفوا معطيات تشير لذلك، فإنَّ ما هو أعظم أنَّ الخالق قد أخبر عنها وضوحا، ويا ليتهم يطّلعون على الكتاب؛ لعلّهم يرشدون إلى ما هو أعظم علما ومعرفة: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[106]؛ فقوله: (فكيف خلق) هنا يكمن المستحيل حيث لا إمكانية لمعرفة الكيفيَّة: التي بها خلقت الأكوان طِباقًا؛ ولأنَّ معرفة: (كيف؟) أمرٌ مستحيلٌ؛ فأخبرنا الخالق عن (الكيف) بقوله: {أَنَّ

---

[105] البقرة: 31.

[106] نوح: 15.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[107]، أي: بعد أن كان الكون ملتحما سماوات وأرضين، فُتق مستحيلًا إلى سبع سماوات وسبع أراضين، وبما أنّنا نعلم بفتق الأكوان؛ فَلِمَ لا نبحث حتى نكتشفها مستحيلًا بعد مستحيل.

ولذلك؛ فالأرض لا تَخلق الأرض، والسّماء لا تَخلق السّماء، وعالم الفيزياء لم يلد نفسه ولم يخلقها، وحتى إن خُلق الشبيه بأيّ مفتاح من مفاتيح العلم؛ فلن يُخلق الشبيه البشري إلّا من خلية حيّة، وحتى أن خلق الشبيه فسيظل شبيها؛ ولذلك فقضية الخلق (الحياة) لن تكون إلّا بيد من بيده أمر الحياة.

ولأنَّ المستحيل لا يمكن أن يُدرك إلّا عندما يصبح شيئًا مفعولًا؛ إذن: فالمستحيل عندما يتجسّد في عملٍ يصبح مفعولًا شكلًا أو صورة أو شيء مشاهدًا وملاحظًا، ولأنَّه المفعول فلا يكون إلّا بفعل الفاعل؛ ولأنَّه بفعل فاعل المستحيل فهو لم يَخلق نفسه، بل من ورائه خالق المستحيل الذي لم تتمكّن عقول بعض الفيزيائيين من التمييز بينه وبين فعله الإعجازي، فعقول البعض وقفت عند المستحيل وكأنَّه الخالق، وهنا تكمن العلّة المعيقة للبعض من الارتقاء وإحداث النُّقلة.

ولذلك؛ فالكون لو لم يكن مخلوقا ما كان مستحيلًا، والاستحالة من أجل أن تُدرك ينبغي أن تلاحق وتتابع استحالة بعد استحالة، وكأنَّها تتدرّج من الأصعب إلى الصّعب، فخَلق الكون وتسييره أكبر

[107] الأنبياء: 30.

المستحيلات التي تمّ إدراكها عقلا، ثمّ خَلق المشاهد في ظُلمة، فيها خُلقت الأرض كما خُلقت النّجوم والكواكب والمجرّات، ثمّ خلقت الأزواج من الأرض وهي مرتقة في السّماء، ثمّ من بعدها خُلق التكاثر تزاوجا؛ فكلّ هذه المخلوقات هي نتاج الفعل المستحيل؛ ولذلك فبمقارنة خلق الأزواج من الأرض وهو الأقرب لعقول البشر، نجد أنَّ الخلق من لا شيء (خلق الكون) يبدو وكأنَّه أصعب من خلق الأرض، وهكذا خَلق الأرض يبدو وكأنَّه أصعب من خلق آدم وزوجه المخلوقين منها، وكذلك الخلق من التزاوج على الصّعوبة التي لا تقارن لو لم يكن هناك ما هو أعظم خلقًا منه.

ومع أنَّنا ندرك أنَّه لا صعوبة بالنّسبة إلى الخالق؛ كونه يخلق بأمره ما يشاء متى ما يشاء، وأينما يشاء، وكيفما يشاء، ولكن لتقريب المعنى وتوصيل المفهوم دلالةً استمددنا مثالًا توضيحًا للمستحيل الذي لا يكون إلّا مخلوقًا ومفعولًا من خالق يَخلقه ويفعله؛ ولذلك فلا وجود للصّعب على من بيده أمر الخلق استحالة، ولكنّ الصّعب يواجه من يحاول بجهده ومقدرته المحدودة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع.

فالمستحيل فعل لا تواجهه الصّعوبة، بل الصّعوبة تواجه الممكن الذي لا يكون إلّا في حدود الجهد والإمكانات المتاحة؛ فالمستحيل لا علاقة له بالجهد، بل له علاقة بالفعل المطلق الذي لا يكون إلّا بيد من فعل المستحيل الذي به خُلق الكون تمدّدًا وتسارعًا إلى النّهاية التي من بعدها ستؤول الأكوان كونًا مرتقًا.

ولذا؛ فعندما تُرتق الأراضين والسّماوات يعود الكون كما خُلق أوَّل مرّة: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[108]؛ فالوجود هكذا سيكون بين تمدّد وانكماش حتى النّهاية التي تعتدل فيها الأكوان على كرسي خلقها بلا استحالة.

فالمستحيل لا يكون بالعمل، بل المستحيل لا يكون إلّا بالفعل؛ ذلك لأنَّ العمل يتحقّق وفقا لما يُبذل من جهد وما ينجز منه، أمَّا الفعل فلا يتحقّق إلّا بفعل الفعّال؛ إذ لا حاجة للجهد (كن فيكون)، وعن غير مقارنة؛ فأنا مثل غيري، بنظرات عيني فقط، أقول لأبنائي: اصمتوا، أو اجلسوا، أو اخرجوا، فما بالك بخالقي وخالق الكون وكلّ شيء مستحيلٍ، ألا تكفي كلمة (كن)؟

وعليه:

فكلِّ ما لم يكن مستحيلاً ممكن، والفرق بينهما، هو: أنَّ الممكن، قابل للإثبات أو الاكتشاف، وهو في حاجة لمن يبرهن على معطيات وجوده، وهو قابل للإثبات مثلما هو قابل للنّفي والرّفض، وقابل للظّهور مثلما هو قابل للكمون.

ولهذا، لو لم يكن ممكناً ما تمَّ إثباته واكتشافه وظهوره وكمونه والشّكّ فيه، ومقارنته مع غيره، أو معرفة مدى ترابطه أو ثباته أو اهتزازه.

---

[108] الرّوم: 11.

أمَّا المستحيل فهو المثبت الذي نعلم به ولا نعرف كيفيَّته إن لم يخبرنا عنها فاعله تعالى، فعلى سبيل المثال: المؤمنون يعلمون بيوم البعث، ولكنَّهم استحالة لا يعرفونه، ولا يعلمون ساعته؛ ولذلك فالخلائق تموت ولا أحد يستطيع إيقاف الموت عنها، والأحياء يخلقون ولا أحد يستطيع بث الحياة فيهم إن لم يولدوا أحياء؛ وهكذا الشّمس تشرق وتغرب ولن يستطيع أحد تغيير أمرها أو تبديله.

ولأنَّ وجود المستحيل لا يُنفى، ولا يُلغى، ولا يُقدّم ولا يؤخّر؛ فهو متحقّق في زمن المفاجأة، فالصّواعق والزّلازل والبراكين لا بدّ وأن تحدث، ولكن ينبغي أن نعمل ما من شأنه أن يقينا منها، والمرض أتٍ ولكن ينبغي أن نعمل ما من شأنه أن يقي عنه، ويشفي منه، والصّحة تضعف، والعمل على تقويتها ضرورة ممكنة، والموت لا شكّ أنَّه آت وإن طالت أعمارنا وبلغنا عمر نوح عليه السّلام أو حتى تجاوزناه سنينَ؛ فكلّ ذلك ممكنٌ علما وبحثا ومعرفة. ولكن أن نلغي الحياة أو الموت حتى وإن دمّرنا ما يمكن لنا تدميره؛ فلا إمكانية، وهنا يكمن المستحيل، أي: إنّ أمر المستحيل بين يدي فاعله أمرًا نافذًا؛ فعلى سبيل المثال: عندما يكون اليوم هو يوم السبت فإنَّ يوم الأحد سيأتي غدًا وفقًا لِعِلمنا ومعرفتنا، ولكن أن يحدث الانفجار العظيم ثانية، أو ينكمش الكون، أو أن يُرتق في لحظة المفاجأة فذلك مستحيلٌ، ولن يأتي الأحد غدًا كما هو متوقَّع.

ذلك لأنَّ المستحيل هو فعل يُفعل بغتة: (في زمن المفاجأة)، وهو الذي يحتوي دائرة الممكن، والممكن لا يحتويه؛ فالممكن لا يكون إلّا

وفقًا للاستطاعة، ولا يتحقّق إلّا على أيدينا، أمّا المستحيل فهو ما لا تستطيع قوّتنا فعله، ولا أيدنا عمله، ولا عقولنا إدراكه ومعرفة كيفيّته. ومع ذلك فمن الضّرورة التفكير فيه بعمق ودون ملل، فالملل يحول بين الحقيقة والباحثين عنها.

ولذا، ينبغي للبحاث أن أرادوا معرفة المجهول، أن يصوغوا له تساؤلات؛ فالتساؤلات تقود إلى معرفة المجهول في دائرة الممكن، ومن ثمّ فالبحاث الذين يعتمدون على صياغة الفروض العلميَّة لن يتمكّنوا من معرفة المجهول، بل يتمكّنوا فقط من معرفة النّصف المتبقي من المعرفة المتوفّرة لديهم؛ فالفروض وإن عظمت نتائجها فهي لا تصاغ إلّا ونصف المعلومة غير مجهول، وللضّرورة هم يبحثون بهدف معرفة ما يتمّم نصف ما لديهم من معرفة.

ولذلك، وجب تقدير الشّطحات العلمية؛ فهي في دائرة الممكن قد تؤدّي إلى معرفة المجهول، أمّا بالنّسبة لما هو مستحيل فالشّطحات عندما تكون موضوعيَّة؛ فهي تمكّن من معرفته وإن قصرت عن معرفة الكيفيَّة التي هو عليها، ولكن عندما تكون الشّطحات غير موضوعيَّة فهي بلا شكّ ستزيد الهوة اتساعًا بين ما هو مستحيل، وما ينبغي لنا أن نتمكّن من معرفته وإدراكه.

ومن هنا؛ فلا ينبغي أن تكون المناهج تدبّرية مقتصرة على الوقت الحاضر، بل ينبغي أن تكون تطلّعية، تستوعب الحاضر تدبّرًا ولا تقتصر

عليه؛ فالتدبّر لا يكون إلّا وفق الإمكانات المتاحة في الوقت الحاضر، أمّا التطلّع فهو البحث عمّا يُحدث النُّقلة إلى ما هو أفضل وأكثر ارتقاء.

ولذلك؛ فالتّطلّع يُمكّن الإنسان من استقراء المستقبل وصناعته، ثمّ يمكّنه من تجاوزه ارتقاء، ومن ثمّ إذا أردنا معرفة المستحيل وبلوغه استحالة؛ فلا ينبغي أن توضع إشارة (قف)، أمام التفكير العلمي لبني آدم، بل ينبغي أن نفكّر فيما نفكّر فيه حتى ننجزه عملًا متحقّقًا أمام المستحيل وآفاقه البعيدة، والذي بوجوده بعيدًا عنّا يفسح لعقولنا مجالات التفكير فيه، والتمدّد تجاهه بلا موانع. أي: ينبغي أن نفكّر في كلّ شيء، وبكلّ حرّية مقدّرة، حتى نعجز، وحينها نعرفه مستحيلًا؛ ولذا فلا مستحيل قبل العجز، ومن ثمّ وجب البحث حتى بلوغ العجز الممكّن من معرفة المستحيل عن قرب؛ ولذلك خُلقنا.

ولأنَّنا خُلقنا لذلك؛ فينبغي أن نعمل والمستحيل نصب أعيُننا؛ حتى ندركه عجزًا، وحينها ندرك أنَّ الارتقاء إليه يمدّنا بالثّقة حيث كلّ شيء ممكن حتى وإن كان غير متوقَّعٍ.

ولأنَّه المستحيل؛ فهو لا يعيق العمل ارتقاء، بل الذي يُعيق العمل عن النّهوض، وإحداث النُّقلة، وبلوغ الارتقاء قمّة هو العمل الذي ينحدر بأصحابه في دونيّة الأخلاق وسُفلية التخلّف السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإنساني: {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى}[109].

[109] الكهف: 88.

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المقوّم للارتقاء، وليس للدّونية، ولكن لأنّ الارتقاء والدّونيَّة يتأثران بالمعرفة والتّخيير تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا؛ فهما بيد الإنسان رغبة واختيارًا؛ ولذلك ينبغي أن يعمل بنو آدم كلّ ما من شأنه أن يؤدّي بهم إلى إحداث النُّقلة الممكّنة من معرفة المستحيل وبلوغه ارتقاء.

وعليه:

فالفعل المستحيل لا يكون إلّا خَلقًا؛ ولأنَّه كذلك فلا يكون إلّا إعجازًا؛ إذ لا إمكانية لخلق الشيء شيئًا إلّا بمشيء، وحتى إن عُدنا لذلك التّساؤل الذي كنّا نطرحه على أنفسنا أيّام المراهقة والثانوية، وهو:

من الذي خلق الخالق؟ وكيف كان قبل أن يخلق ما خَلق؟

أقول:

بما أنَّنا نقول الخالق، إذن؛ فلا ينبغي أن نسأل عمّن خلق الخالق؟ أي: كيف لنا من زاوية نقول: الخالق، ومن زاوية أخرى نسأل عنه؟ إنَّه الخالق الذي يخلق ولا يُخلق، ومن ثمّ؛ فكلّ شيء يُخلق؛ فهو ليس بالخالق؛ ولذا فلا فواصل بين الخالق وخَلقه؛ فالخالق ليس على الصّورة ليكون موجودًا قبل أن يخلق الخلائق؛ ولذلك فالسؤال ليس في محلّه؛ لأنَّ السّائل جعل في ذهنه هيئة للخالق، وهنا تكمن العلّة، حيث لا هيئة للخالق، بل له مشيئة، والمشيئة هي فعل المستحيل، والتفكير في الفعل المستحيل يجعل السّائل في حيرة من أمره بعلّة في نفسه وهي: اختلاط فكرته عن الخالق الذي لا يُصوّر بما هو على هيئة الصّورة،

وبالتّالي فمن يتصوّر لله هيئة، يجعله وكأنَّه داخل الإحاطة، ومن يفكّر داخل الإحاطة؛ فتفكيره لا يزيد عن كونه تفكير كتكوت داخل البيضة، والذي لا إمكانيَّة له في رؤية عالم أعظم من عالمه داخل البيضة؛ ولذلك فهيئة الله بلا هيئة، وصورة الله بلا صورة. ومن هنا؛ فنحن غير عاجزين عن معرفة الله، ولا يليق بنا أن نسأل عمّن بيده الأمر (كن) كيف كان؟

نعم، الله لم يكن، حتى نسأل عنه كيف كان، فمثل هذا السؤال يتعلّق بمن لم يكن فكان، كما هو حال الكون الذي كما يقولون عنه: كان نتاج ذلك الانفجار العظيم سببًا، وكما هو حال الأزواج التي لو لم تكن الأرض كائنة ما خُلقت منها الأزواج سببًا، وغيرها كثير من الخلائق التي قبل خلقها لم تكن بخلائق.

ومن هنا؛ فلا ينبغي أن يكون السؤال: كيف كان الله؟

بل ينبغي أن يكون السؤال: من هو الله؟ وما هي صفاته؟

فالله هو الذي يُسمّى بهذا الاسم، وهو الذي لم يكن كائنًا، حتى يسأل عنه كيف كان؛ ولذلك فالكائن لا يكون إلّا على هيئة يراد له أن يكون عليها فيكون. وبالتالي فأيّ كائنٍ لا يكون إلّا على هيئة ووفق مشيئة ليست بيده، ومن هنا؛ فنحن ندرك الكون علمًا، ولكنّا لا ندرك هيئته، وكيف لنا بهذا ونحن لم ندرك صورة الكون متكاملة؟ أي: كيف لنا بهذا ونحن داخل محيط الكون الذي لم نتمكّن بعد من الخروج عنه بأيّ سبب، ومع ذلك يمكن لنا أن نتصوّر الكون بوصفه جزيء فيه أو حتى إنّنا أقل من ذلك بكثير، أمّا الخالق فهو على غير هيئة؛ كونه على

غير صورة، وبالتالي لا إمكانيَّة لوضعه في أيّ هيئة ذهنية، ولا يليق بعقولنا ومدركاتنا التي أدركته استحالة أن تجعله على هيئة أو صورة وهو لم يضع نفسه فيها؟

ومن ثمّ؛ فالله يخلق غيره، وغيره لا يخلقه، وبالعودة إلى السؤال: كيف كان الله؟

فالله لا يكون.

ومن هنا، فالسؤال لا علاقة له بمن يُسأل عنه، بل له علاقة بالسّائل، الذي لا يعرف من كينونته إلّا إنَّه من نطفة، ومن قبلها من تراب، ولا شيء غير ذلك، ومع ذلك يسأل: كيف كان الله؟

أي: ألا يكفي إجابة أنَّه يعلم أنَّه قاصر عن معرفة كيفيّة خلقه التي ليس له رأي فيها؟ ويسأل عن كيف كان الله؟

أقول:

عليك بالبحث في الكون بلا توقّف؛ لعلّك تعرف كيف خُلق، وكيف كانت له هيئة قبل أن يُخلق، ووفق أيّة مشيئة هو خُلق؟ وكذلك عليك بالبحث في نفسك؛ لعلك تعرف كيف خُلقت، وكيف كانت لنفسك هيئة قبل أن تُخلق، ووفق أيّة مشيئة هي خلقت؟ وعليك أن تفكّر فيما تفكّر فيه قبل أن تتكلّم وتقرّر أو تعمل؛ فإن فعلت ذلك عن وعي، لا شكّ إنّك ستدرك أنّ صفات الله تتعدّد بتعدّد نعمه، وهو الواحد الذي لا يتعدّد.

المُعجز نشوءًا

النّشوء خَلقٌ من خَلقٍ، وإنبات من نبتٍ، ومُعجز قابل للنمو؛ فالخَلقُ كونه غير مسبوق، هو الفعل المستحيل الذي لا يتحقّق إلّا أمرًا؛ ولذلك فالخَلقُ فعل يسبق المخلوق تحقّقًا كما هو خلق الكون شيء من لا شيء يذكر، أمّا النّشوء فهو الخلق ممّا خُلق إعجازًا، كما هو خلق الأزواج من الأرض، ومن الأنفس، وممّا لا نعلم: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[110].

أمَّا النّمو في ذاته فلا يكون نموًّا إلّا في ذات غيره نشوءًا، حيث لا وجود للنّمو من غير شيء ينمو، فهو عمليَّة ازدياد، كما هو ازدياد حجم الكون تمدّدًا وسرعة، وكما هو ازدياد حجم الخلايا نموًّا وضخامة، وكما هو نمو (نشوء) النبتة من بذرة إلى شجرة.

ولذا؛ فكلّ شيء مؤسّس على الإعجاز ينمو إلى النّهاية (نهاية المكان أو الزّمان) الخاصّين بمن ينمو إعجازًا (نضجًا وعمرًا)، وهذا الأمر ينبغي أن يُلفِتَ نظر الإنسان إلى نفسه؛ كي ينمو قولا وعملًا وإرادة وسلوكًا، أي: يجب أن ينمو تذكّرا؛ حتى يبلغ بداية الخلق وسرّ وجوده مستحيلًا وإعجازًا، بهدف استجماع القوَّة من التّاريخ المملوء بالمستحيلات والمعجزات والتجارب والقصص والمواعظ والعبر، التي تمكّنه عن تدبّر من إنشاء شيء جديدٍ يفوق ذلك الماضي ارتقاء؛ ومع ذلك فلا يقف عنده غاية؛ فالغاية بالنّسبة لمن تدبّر أمره في حاضره ارتقاء،

---

[110] يس: 36.

هي بلوغ ما هو أعظم منه ارتقاء؛ ولهذا فعليه أن يفكّر فيما هو أعظم، وعليه أن يعرف أنّ بلوغه ممكنٌ؛ فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، مهما عمل من الأعمال الحِسان فهو يعلم أنَّه بالإمكان بلوغ ما هو أحسن منها؛ ولهذا فلا ينبغي أن يتوقّف نموًّا، بل عليه أن يعمل والأمل لا يفارقه، وعليه أن يعرف أنَّ العمل ارتقاء وحده يطوي الهوة بين الأمل وصاحبه، وبين الحاجة المتطوّرة ومشبعاتها المتنوّعة.

ولأنَّ الخَلقَ هو فعل المستحيل يتحقّق إعجازًا؛ فهو غير المتوقّف نموًّا وازديادًا، بل حاله من حال الكون المتمدّد تسارعا؛ ولذلك فالخَلق بلا انقطاع يحتوي نشوءًا معجزًا، والنّشوء بلا انقطاع يحتوي نموًّا، والنّمو بلا انقطاع يحتوي ارتقاء يحقّق الرّفعة في دائرة الممكن.

ولأنَّ فعل المستحيل بيد الخالق؛ فالخالق لو لم يفعل مستحيلًا، ما نشأ الخلق وجودا مُعجزًا، وما أمكن للإنسان ارتقاء، إنَّها حلقات متداخلة (خلق، نشوء، ارتقاء)، ولا يمكن أن تستقل حلقة عن أخرى، فحيثما كان الخلق كان النّشوء، وحيثما كانا: (الخلق والنّشوء) كان الارتقاء، أي: لا ارتقاء بلا نشوء، ولا نشوء بلا خلقٍ، ولا خلق بلا خالق، ومن هنا، نميّز بين ما هو مستحيل إلّا بفعلٍ مطلق، وما هو نشوء إلّا بفعل معجز، وما هو ممكن إلّا بعمل واستطاعة.

فالنّشوء خلقٌ من خلقٍ، وإنبات من نبتٍ، وإعجاز من معجز؛ فالأرض عندما كانت مرتقة في السّماء كانت بيئة صالحة للإنبات بلا تكاثر، وهذه هي النشأة المعجزة (الأزواج) كما هو حال نشأة آدم

وزوجه من تراب: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[111]؛ فإنبات آدم وزوجه من الأرض كان ظهورًا مشاهدًا مثل النبتة بالتّمام، غير أنّ النبتة ذات جذور ضاربة في الأرض، أمّا آدم وزوجه فلا ضربَ لهما في الأرض إلّا سلالة؛ ولهذا فخطاهما تمشي عليها استقامَ قامة.

وهذا الأمر ينبغي أن يلفت نظر الإنسان إلى أهمية الأرض؛ كونها الأم الأولى، والوطن الأوّل، الذي فيه بنو آدم إخوة مختلفون، ولِمَ لا يظلون إخوة مختلفين؟ فالاختلاف مشيئة الخالق في خلقه، وليس بعيب أخلاق، بل العيب الذي ينبغي أن يُجنّب هو الخلاف الذي بأسبابه تقاتلا ابنا آدم؛ حيث سيطرت الشّهوة والرّغبة الشخصانيَّة على أحدهما؛ فأقصى أخاه ثمّ قتله.

ولأنَّها العلل المفرّقة بين الأخوة ألما؛ فَلِمَ لا تُقبر بيدٍ واحدة، وعن قلبٍ واحدٍ، ويترك المجال ارتقاء لنشوء المودّة والتوافق بين بني آدم، من أجل البناء نموّا يطوي الهوة بين الأرض والسّماء عملًا لا اتكاليَّة فيه من أحدٍ على أحدٍ.

ولأنَّ النّشوء منبت الحياة نموّا معجزا فهو لا يتوقّف خَلقًا؛ ولأنَّه كذلك فَلِمَ لا يكون كذلك لا يتوقّف ولا يتخلّف على أيدي بني آدم، تعليمًا، وصحّة، وزراعة، وصناعة، وبناء وإعمارًا، وإصلاحًا، وغزوًا للفضاء حتى بلوغ الحلّ الممكّن من بلوغ الجنّة نعيمًا وفردوسًا.

---

[111] نوح: 17.

ولأنَّ العلاقة بين الخَلق، والنّشوء، والارتقاء علاقة ارتباطيَّة؛ فهي مثل علاقة (الأرض والبذرة والسّماء)؛ فالبذرة لو لم تُبذر أو تُغرس في الأرض ما نبتت ونمت على ظهرها ارتقاء في اتجاه السّماء وكأنَّها تأمل بلوغها غاية.

ولأنَّ العلاقة بين الخَلقِ والنّشوء والارتقاء، علاقة بين مستحيل، ومعجز، وممكن؛ فهي علاقة اعتمادية بين السّابق (الخَلق)، والتابع (النشوء)، واللاحق (الارتقاء)؛ ولذلك وجبت المعرفة على اللاحق، لكلّ تابع لما قبله سابق، ممّا يجعل الماضي البعيد هو المستقبل بعينه، أي: لو كان أبونا آدم على قيد الحياة وسألناه: ما هو المستقبل المأمول؟ لقال: تلك الجنّة: (ذلك الماضي الّذي نشأ فيه ارتقاء قمّة ورفعة).

ومن هنا؛ فإنَّ التفكير في المستقبل يربط المفكّر وما يفكّر فيه بالماضي المأمول، ومع أنَّ الزّمن في أذهاننا مقسّمٌ بين ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ، فإنَّ التفكير تدبّرًا في الوقت الآن لا يمكن أن يفصل مستقبل آدم المأمول عمّا نشأ فيه يقينا؛ ولذلك فالزّمن الحاضر كما يربطنا بما جرى ارتقاء؛ فهو يربطنا بما نأمل الارتقاء إليه، سواء أكان المأمول قد حدث في الماضي، أم إنَّه سيعود إلينا ثانية.

ومع أنَّ خلق آدم وزوجه كان خلق قمّة في أحسن تقويم، فإنَّ آدم وزوجه انحدرا عن تلك القمّة باختيارهما، ومع ذلك عندما عرفا أنَّ العلّة قد ألمت بهما وكانت من وراء انحدارهما هبوطًا دونيًّا، ندما واستغفرا لذنبهما؛ فتاب الله عليهما، ومن هنا، نشأ لديهما أمل العودة إلى تلك

القمّة الماضية وهي بالنّسبة إليهما الأمل المفقود، ولكنّ هذا الأمل المفقود لا يمكن أن يبلغ إلّا بالعمل ارتقاء.

وهنا يتداخل الزّمن، فما يأمله آدم وبنوه المصلحون هو: تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم وزوجه، ولكن كيف تكون تلك الجنّة هي الماضي، وتكون هي المأمول ذاته في المستقبل؟

أقول:

الجنّة خُلقت وجودًا في الكون المرتق؛ حيث لا وجود للأيّام، بل هناك اليوم الواحد: (اليوم الآخر) الذي لا وجود للظُّلمة فيه؛ إذ لا مجال للشّروق والغروب، ولأنَّه كذلك فلا وجود للماضي والمستقبل، بل الوجود للحاضر، ولا شيء غيره.

فالمخلوق عندما ينتهي من الوجود الحي، ليس له من الأيّام إلّا الزّمن الحاضر، وكذلك عندما يُبعث حيّا لن يجد شيئًا مسجّلًا إلّا في الزّمن الحاضر الذي وحده سيكون الشّاهد الأوّل على الأعمال ثقيلها وخفيفها.

ولذلك؛ فكلّ حياة الإنسان هي زمنٌ حاضرٌ، وكلّ ما يعمله الإنسان فيها، ويتمّ استدعاؤه من الذاكرة لا يكون إلّا حاضرًا في الزّمن الحاضر. أي: كلّ شيء يُفعل أو يُعمل لا بدّ أن تسجله الحياة في صفحاتها حاضرًا.

فالزّمن دائرة، نقطة بدايتها تتمثّل في كلّ نقطة من نقاطها المتّصلة، التي عندما يوضع الأصبع على أيّ منها تعدّ هي مركز منتصفها، وفي الوقت ذاته تعدّ نقطة نهايتها، وهنا يعدّ الزّمن كلّه حاضرا، أمَّا الأعمال في الزّمن فهي الشّاهدة على من يقوم بها؛ ولهذا يموت العاملون وتبقى أعمالهم حاضرة؛ حيث لا وجود لماض يقبرها، بل الماضي يحفظها حاضرًا.

ولذلك؛ فالنَّاس يحدّدون أهدافهم، ثمّ يعملون على إنجازها أو تحقيقها وبلوغ الغاية التي من ورائها، مع العلم أنّ الزّمن بين تحديدها وبلوغها يحتاج إلى أعوام، وهذا يعني: أنَّ زمن تحديد الأهداف لم يكن هو زمن تحقيقها، ولا تحقيق الغاية التي من ورائها، مع أنَّ الزّمن الذي حُدّدت فيه قد أصبح ماضٍ، وهو في الوقت ذاته بالنّسبة إلى إنجازها أو بلوغها لا يعدّ إلّا مستقبلًا.

ومن ثمّ؛ فتلك الجنّة بمقاييس زماننا هي ماضٍ، ولكن إن سلّمنا بذلك، ألا يعني أنَّ الماضي سيظل ماضٍ ولن يعود؟ وإذا كان كذلك فلا أمل فيه، ممّا يجعل التسليم به، وكأنَّنا نقول: لا وجود للجنّة في المستقبل.

ولهذا؛ فمن يعمل، ثمّ يزداد نموّا وارتقاء؛ فلن يبلغ جنّة غير تلك الجنّة التي هي حاضر آدم وزوجه، وهنا نقول:

إنَّ الماضي المأمول هو المستقبل بعينه فمن شاء بلوغه؛ فليعمل على مستقبل يربطه بالماضي ارتقاء؛ ولكن هذا لا يعني الاجترار، ولا

يعني الالتفات إلى الوراء، بل يعني: التقدّم تجاه المأمول نشوءًا وإبداعًا منتجًا لكلّ جديد مفيد يرتقي بالنّاس إلى تلك الجنّة، وحيث ذلك الماضي الذي خُلقت فيه الأزواج، والتي كان آدم وزوجه على رأسها في أحسن تقويم (قمّة).

فالزّمن متصّل بلا فواصل، وما يسمى بالماضي والحاضر والمستقبل، لا تزيد عن كونها فواصل من عندنا، وليس من عند الزّمن؛ فالزّمن هو الزّمن حاضرًا، ولكن الأحداث التي تقع فيه تفصل بينها الأيّام التي بها تُعدّ السّنين، وفيها تُصنّف الأعمال بين من ثقلت موازينه من أجل العودة إلى تلك الجنّة أملًا وارتقاء، ومن خفّت موازنه انحدارًا؛ إذ لا أمل له في ماضٍ لم يأمله مستقبلًا.

ولذا؛ فَخَلق الكون مُرتقا، ونشوء آدم وزوجه فيه ارتقاء، ثمّ انحدارهما منه والأرض هبوطًا، لا يلغي في دائرة الممكن أمل العودة إلى ذلك الكون متى ما تمّ رتقه كما كان أوّل مرة: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}[112].

يُفهم من هذه الآية أنَّ الخَلقَ والنشوء قد أوجدا كونًا أوَّلًا: (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)، ثمّ أصبح الارتقاء فرصة، ولأنَّه فرصة؛ فلا ينبغي أن تضيع من أيدي من سُنحت لهم؛ ولهذا فأوّل المغتنمين لها استغفارًا وتوبة كان آدم عليه السّلام؛ فتاب الله عليه بأمل العودة إلى حيثما كان عليه قمّة.

[112] العنكبوت: 20.

وبما أنَّ الارتقاء لا يكون إلّا حيثما توجد القمّة المأمولة، إذن: فلا ارتقاء إلّا إلى حيثما هي كائنة؛ ولأنَّها قمّة كائنة وجودًا فهي وجود سابق على من يرغبها أملا لاحقا، ومن هنا، فالزّمن ليس هو ما نأمله، بل الذي نأمله ما يحتويه الزّمن وجودا؛ ولذلك فالزّمن هو الزّمن، فحيثما كان الماضي يكون المستقبل حاضرًا.

ومن ثمّ؛ فالأهداف التي تصاغ في خِطّة بحثيَّة في الزّمن الحاضر هي الأهداف المأمول إنجازها في الزّمن المستقبل الذي يوم أن تنجز فيه يكون هو الشّاهد: (الحاضر) على إنجازها، كما كان هو الشّاهد حضورًا يوم تحديدها وصياغتها.

فالكون الذي كانت بداية الخلق منه حاضرة، هو الكون الذي ستكون نهاية الخلق إليه حاضرة، أي: لا وجود لشيء إلّا في حاضرٍ، وبما أنَّ خلق الكون مُرتقا كان البداية، إذن: فالنّهاية لا تكون إلّا برتقه ثانية: (ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) التي لا يمكن لنا معرفة كيفيّتها؛ لأنّ أمر معرفة الكيفيَّة الآخِرة مستحيل، ولأنَّه أمرٌ مستحيلٌ؛ فهو خارج دائرة الارتقاء إليه ممكنا.

ولأنَّه خارج دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع فلا إمكانيَّة لتصوّره، ولا إمكانيَّة لمعرفة كيفيَّته؛ ولذلك فسيظل المستحيل مستحيلًا وإن علمناه مستحيًلا: {وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}[113].

[113] الواقعة: 61.

أي: إنَّ نَشأة أخرى قد حُدّدت وستأتي لا محالة، وسينشأ الخلق عليها بعد أن ينتهي الكون تمدّدًا وبأيّة علّة، والاستحالة هنا، هي التي لا تكون إلّا ممكنا بين يدي الله، حيث لا استحالة أمامه.

ومن ثمّ؛ فبنو آدم يعرفون أنَّ أساس النّشوء الآدمي من الأرض، وكذلك يعرفون أنّ الأموات يتحلّلون وينتهون فيها أثرًا باليًا، ويدركون أنّ للحياة بداية ونهاية، ثمّ إنَّ للموت نهاية: (موت الموت)، ولهذا؛ فالمؤمنون يعرفون أنّ من بعد النّهاية بداية أخرى على كيفيَّة أخرى، ولا تكون إلّا مستحيلًا: (وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ).

ولذلك؛ فلا نشوء خَلقي مُعجز إلّا وفعل الخَلق يسبقه، ولا ارتقاء خُلقي إلّا ونمو الخُلق منشؤه، ومن هنا؛ فلا يلد الشيء المعجز إلّا من الشيء المعجز، وفي المقابل الخالق يخلق الشيء من لا شيء استحالة، كما هو استحالة خلق الكون وفتقه أكوانًا.

ولأنَّ الخَلق هو فعل الوجود الأوّل؛ فالنّشوء من بعده وجود آخر مُعجز، ومع أنَّه وجود آخر، فإنَّه لولا الوجود الأوّل ما كان شيئًا آخر؛ ولذا وراء كلّ نشوء مُعجز نشوء من ورائه نشوء واستحالة: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[114]. أي: لو أجرينا مقارنة بين النّشوء الأوّل: (الطّين) المعجز ثمّ: (النّطفة) المعجزة،

[114] المؤمنون: 12 . 14.

والنّشوء الآخر جنينًا متكاملًا معجزًا؛ فلا نشاهد علاقة، ولكن مشيئة الخالق شاءت أن تكون بداية النّشوء مرحلة قابلة للنّمو والارتقاء من حالة إلى حالة أخرى تختلف عنها مشاهدة.

ولذلك؛ فلولا الطّين ما نشأت الأزواج، ولولا الأزواج ما نشأت النّطفة، ولول النّطفة ما كان المولود شيئًا آخر، وهنا، يصبح الخلق بين أيدي النّاس عجزًا واستحالة.

ومع أنَّ بداية النّشوء لم تكن على الكثرة، ولكن نهايته لا تكون إلّا عليها؛ فالبذرة الواحدة نشوء تنتج أكثر من سُنبلة، وفي دائرة الممكن ارتقاء السُّنبلة تمتلئ بذورا متعدّدة، وهذا يجعل عدد البذور المنتجة من البذرة الواحدة مئات؛ ولذلك فالتكاثر يتضاعف نموّا وكثرة؛ ليُسهم في إشباع حاجات الإنسان المتطوّرة مع تطوّره عددا ومعرفة.

ومن ثمّ، ينبغي أن يعمل بنو آدم كلّ ما في وسعيهم من أجل تحسين حالات النّمو وتحسين أحوالهم إلى ما يجب بلوغه نشوءًا وارتقاء؛ فالإنسان الذي يعلم أنَّه في دائرة الممكن قادر على أداء العمل فلا ينبغي له أن ييأس من بلوغ غير المتوقَّع نتيجة، ولأنّ دائرة الممكن لا تقتصر على المتوقَّع فقط؛ فلِمَ لا ينتبه الجميع، ويعملون على تحقيق غير المتوقَّع تعليمًا، وإنتاجا، وعدلا، ورفاهيّة، وغزوا للفضاء حتى اكتشاف الأكوان طباقًا واكتشاف ما يضاف إلى المعارف الممكّنة من إحداث النُّقلة.

ولأنَّ النّشوء الخلقي يؤسّس إلى نشوء مُعجز من بعده نشوء مُعجز، كما هو حال نشوء الأرض التي من بعدها نشوء الأزواج، تمّ

نشوء التزاوج من الأزواج كثرة؛ فينبغي أن تكون هذه معطية تلفت العقل الإنساني إليها؛ لينشئ من الأشياء أشياء أخرى تسهم في إشباع حاجاته المتطوّرة؛ إذ كلّما التفت الإنسان إلى الأرض معجزة، اكتشف شيئًا جديدًا يمدّه بالمزيد المعرفي؛ فالأرض خامات وثروات ثمينة، تملأ ظاهرها كما تملأ باطنها، فمن بلغها نشوءًا وارتقاء معرفيّا تمكّن من تشييد المزيد نشوءًا حتى معرفة المستحيل وبلوغه مستحيلًا، وفي المقابل من تُلهه نفسه شهوة؛ فلن يجد نفسه إلّا على حالة من الانحدار والدّونيَّة التي لا تزيده إلّا تقليل شأن.

فالإنسان الذي خُلق على قمّة النشوء ارتقاء، لو لم ينحدر بداية؛ لكان إلى يومه هذا على قمّة الزّمن الحاضر في حُسن خَلقه وحُسن خُلقه. ولكنّ الغفلة قد أخذته؛ فعصى ربّه؛ فانحدر إلى ما لا ينبغي، ثمّ حاول النّهوض، ولكنّه لا زال يحاول وهو بين أمل ويأس، أمل الارتقاء إلى ذلك الماضي، ويأس بلوغه بعلل الشّهوة التي لا ترى الأنا إلّا مركزًا على حساب الغير.

وعليه:

فالنّشوء لا يمكن أن يكون صفرا، بل الصّفر هو نقطة ما قبل وجوده أو نموّه؛ فالنّمو لا يبدأ إلّا من نقطة الصّفر، ولا ينتهي قمّة إلّا إليها، حيث التوقّف عن النّمو ارتقاء، أي: عندما يبلغ النّمو نقطة لا ينمو من بعدها شيئًا؛ تعدّ هذه النقطة صفرية؛ إذ لا شيء من بعدها

إلّا الاستحالة وهي النقطة التي لا شيء من بعدها إلّا الانحدار إلى نقطة صفر البداية.

المُمكنُ ارتقاء

الارتقاء مكانة يُمكن أن يكون الإنسان عليها خَلقا، ويمكن أن يكون عليها قيمة لا تُبلغ إلّا بمزيد من الجهد العقلي والخُلقي، وفي المقابل هناك من يره تطوّرًا يطرأ على الكائنات الحيّة؛ فيغيّر حالتها من دُنيا إلى عُليا، من خلال ما يطرأ عليها من تغيّر في الجينات والسّمات؛ ولكنَّ الجينات الخَلقيَّة لم تكن نتاج تكيف بيئي حتى تتبدّل وتتغيّر مع تغيّر البيئات، بل هي خاصيَّة خَلقيّة تحافظ على الأجناس، حتى وإن بلغ الإنسان من العلم ما بلغه؛ فلا إمكانية له أن يغيّر الأجناس، وستظل الكائنات على ما هيّ عليه مختلفة، وإن لُعب بها جينيًّا، ولكن تحسين وتجويد أنواعها أصبح في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع ارتقاء حتى النّهاية.

ولأنَّ الإنسان في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع؛ فهو مؤهّل لأن يرتقي إلى ما هو أفضل قيمة، ولأنَّه كذلك فالأمل لا يفارقه؛ ولهذا فهو يبحث من أجل بلوغ القمّة التي لا تُبلغ إلّا بالمزيد العلمي والمعرفي، والعمل المنتج، وإصلاح ذات البين، وتحدي الصّعاب بكلّ ما يمكّن من قهرها.

فالكائنات التي يظنّ البعض أنَّها متطوّرة، نعتقد أنّ التطوّر يستوجب إرادة تمكّن من اتخاذ قرار من وسط مجموعة بدائل، وهذه

الخاصيّة غير متوفّرة عند الكائنات التي لم تُخلق في أحسن تقويم؛ ولذلك فالكائنات قابلة لأن تتغيّر، وفقًا لقاعدة التكيّف بأسباب الضّرورة الطبيعيَّة، وحتى إن دُرِّب منها ما دُرّب أو عُلّم؛ فهو لن يتطوّر كما هو حال الإنسان وارتقاؤه؛ فالإنسان خُلق متميّزا بخصائص وصفات الارتقاء التي لم تكن من خصائص وصفات بقية الكائنات.

ولذلك؛ فالإنسان في دائرة الممكن ارتقاء يتذكّر ما يؤلم وما يفرح، ويؤهّل حاله عن تدبّر بما يمكّنه من العمل المنتج، وفي الوقت ذاته يفكّر في كيفيّة تمكّنه من بلوغ ما يجب أن يكون أفضل وأجود وأكثر ارتقاء.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء خُلق في أحسن تقويم، لكنَّه بعلّة المعصية والشّهوة والرّغبة قد انحدر هبوطا منذ خلقه الأوّل، ومع ذلك منذ تلك اللحظة التي قُبلت فيها توبته، ظلّ آدم ومن بعده بنوه على الأمل في حاضرهم، ومع أنَّه الأمل في الزّمن الحاضر، فإنَّه يتعلّق ارتقاء بما هو ماضٍ (تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم)، وهو ما لم يتحقّق بعد.

ولذلك؛ فالتطوّر يمكن أن يكون خاضعا للمشاهدة مثل الإعمار وبناء الحضارات، وهذه من خاصيّة الإنسان التي لا يشاركه فيها غيره، ومن هنا يُصبح الارتقاء في دائرة الممكن يستوجب بحثا علميّا مضنيًا، وجهدا ينجز وفقًا للأهداف المحدّدة، والأغراض التي من ورائها، والغايات المأمول بلوغها قمّة، وفي المقابل يمكن أن يكون التطوّر خاضعًا للملاحظة مثل السّلوك وما يطرأ عليه من تغييرات مقصودة، وهذه تشترك فيها كلّ المخلوقات بما فيها من خُلق في أحسن تقويم.

فالإنسان في دائرة الممكن، ارتقاؤه القيمي يُرسّخه قيمة في ذاته، قيمة تستوجب مزيدًا من الاحترام والتقدير والاعتبار؛ وذلك بما يفسح له مجال العدل الممكّن من العلم، والعمل، والتملّك، والتمدّد إلى النّهاية دون أن يكون له تمدّدٌ على حساب الغير.

وهنا؛ فالممكن ارتقاء هو المتاح تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا، وهو ما يمكن بلوغه قدرة واستطاعة، وهو ما لم يكن مستحيلًا حتى وإن كان صعب التحقّق، وهو الذي ليس له وجودٌ لو لم يسبقه وجود خَلق ونشوء، ومع ذلك وجوده لا يعدّ إن لم يلاحق الخَلق والنشوء ارتقاء.

ولأنَّه الممكِن ارتقاء فهو بين متوقَّع وغير متوقَّع؛ فالمتوقَّع منه هو الذي بحدوثه لا تحدث المفاجأة، ولا الاستغراب، ولا توضع علامات التعجّب. أمَّا غير المتوقَّع فهو الذي لا تتوافر معطيات حدوثه بين أيدي النَّاس، ومع ذلك يقع، ممّا يجعله في حالة تساوٍ نسبي مع المتوقَّع في دائرة الممكن؛ ولهذا إذا ما حدث غير المتوقَّع حدثت المفاجأة أو التعجّب والاستغراب.

فغير المتوقَّع يقع أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ممّا يجعله يقع: (هو كما هو) إثباتًا.

ومن هنا، ينبغي أن يتمَّ التعرُّف على غير المتوقَّع وعلى علله ومسبّباته لاحقًا ليتمَّ التعرُّف على نقاط الغفلة، أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المتوقَّع.

فالمتوقَّع وغير المتوقَّع متغيران رئيسان في دائرة الممكن، التي فيها تتساوى فرص ظهور كلّ منهما بنسبة ثابتة قدرها (50%) والمتوقَّع يمكن أن يكون سالبًا، ويمكن أن يكون موجبًا؛ فالموجب منه لا يكون إلّا وفقًا لما هو مأمول، والذين لا يأخذون حذرهم يرسمون خططهم وسياساتهم وفقًا لِما هو موجب متوقَّع، وكأنَّ الحياة لا تُحفُّ بالمخاطر، وكأنَّ العلائق بين النَّاس لا تُبنى إلّا على الصّدق فقط؛ ولذلك فهم دائمًا يفاجؤون؛ كونهم لم يحدّدوا لغير المتوقَّع موضعًا.

وعليه:

ينبغي أن تُرسم الخطط والسياسات والاستراتيجيَّات وفقًا لدائرة الممكن التي تحتوي ما هو متوقَّع موجبًا وما هو متوقَّع سالبًا، وما هو غير متوقَّع موجبًا، وما وهو غير متوقَّع سالبًا.

وبما أنَّ الممكن ليس مستحيلاً؛ فعلى الإنسان أنْ:

. يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر ويعمل.

. أنْ يخطّط لما هو غير متوقَّع مثلما يخطط للمتوقَّع.

. أنْ يعمل ارتقاء بلا تردّد ولا يأس، حتى يُرتَقَ الممكن بالمستحيل قمّة.

. أنْ يقبل تحدّي الصّعاب؛ فالصّعاب تُقهر، ولا مستحيل في دائرة الممكن، ولا استغراب، بل الاستغراب ألا يتمّ تحدّى الصّعاب التي تحول بين الإنسان وارتقائه قمّة.

وبالتّالي فمن يرسم الخطط والاستراتيجيَّات ويعد البرامج وفقًا لِما هو متوقَّع، عليه أن يعرف أنَّ ما يفكّر فيه معرّض لمواجهة غير المتوقَّع، ممّا يلفت انتباهه إلى التفكير في غير المتوقَّع بخطط بديلة تواجه ما يمكن مواجهته من مواقف أو أضرار أو مخاطر قد تحدث؛ ولذلك فالزّمن الحاضر هو زمن التخطيط والتدبّر والتذكّر والتفكّر، وهذا يعني: أنَّ دائرة الممكن هي التي فيها ينصهر الزّمن حاضرا، أي: إنّ التذكّر الذي يرتبط بما هو ماضٍ، لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وكذلك التفكّر الذي يتعلّق أمره بما لم يتحقّق بعد لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وفي الوقت ذاته يتدبّر الإنسان أمره وكأنَّه لا يعيش الزّمن إلّا حاضرًا. أي: إنَّ الذي يتذكّر في دائرة الممكن لا يجب أن ينظر لما يتمّ تذكّره من الماضي وكأنَّه لن يتكرّر، بل ينبغي أن يره وكأنَّه الآن يواجهه تحدٍّ؛ ممّا يجعله في وقته الحاضر متحدّيًا له بحلولٍ حاسمة، وهكذا ينبغي أن يفكّر فيما يمكن أن يواجهه مغالبة؛ حتى لا يحدث وتحدث المفاجآت المؤلمة التي تؤدّي إلى الانتكاسة أو الانحدار، بدلًا من أن تؤدّي إلى بلوغ القمّة ارتقاء.

فالممكن احتمالًا يسبق ما يمكن أن يكون محتملًا أو غير محتملٍ؛ ولهذا فلا يتحقّق الممكن إلّا في دائرة الحاضر، حتى وإن أصبح ذلك المتحقّق في دائرة الزّمان مسجّلًا؛ فالممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع في زمنه الحاضر يسبق حدوث الفعل؛ ومن ثمّ يظل الممكن تحت الانتظار إلى أن يتحقّق أو لا يتحقّق؛ ومن هنا يصبح للممكن مصادق تثبت حدوثه أو تبطل حدوثه.

فالممكن في زمنه الحاضر يُلاحق العبر والمواعظ، ويتزامن مع التدبّر، ويسبق المأمول حتى يتمّ بلوغه ارتقاء؛ ففي الزّمن الحاضر لا انتظار لشيء يعود إلّا استدعاء ذاكرة، ولا انتظار لشيء يأتي وهو لم يكن شيئًا، ولا شيء يحدث إلّا في الزّمن الحاضر.

وبما أنَّه في دائرة الممكن لا وجود للمستحيل؛ إذن فمن الممكن التفكير في المستحيل حتى معرفته مستحيلا، وعندها يدرك الإنسان أنَّه في حاجة لمزيد من الارتقاء، ومع أنَّ الإنسان يتوقّع ما هو ممكنٌ، فإنَّه قد لا يستطيع تحقيقه بأسباب قصور قدرته، ومحدودية إمكاناته، وعلى الرَّغم من ذلك فعليه أن يعمل مع من يمكّنه من الارتقاء تحدٍّ؛ فالصّعاب لا تصمد أمام التحدّي.

ولهذا؛ فالإنسان يتذكّر ويتدبّر ويفكّر في كلّ ما من شأنه أن يُظهر له ممكنًا، ويمكّنه من إنجازه، أو تحقيقه بغرض الارتقاء إلى ما هو غاية.

وبما أنَّ كلّ شيء ممكن؛ فلِمَ لا نفكّر فيه بلا قيود؟ حتى وإن وضعت عليه القيود علّة بأيّة علّة؛ فيجب أن تفكّ العلل مع القيود، ولكن إن لم تفكّ العلل والقيود؛ فعلامات الاستفهام والاستغراب وأفعال المواجهة ستكون ارتقاء في الميادين والشّمس في كبد السّماء؛ ولذلك فالاستغراب يَحدث عندما يَحدث غير المتوقَّع في الزّمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقَّع، وهنا تكمن المفاجأة، التي لا تظهر إلّا بغفلة عمّا هو غير متوقَّع.

ومع أنَّ في دائرة الممكن يتساوى حجم المتوقَّع مع غير متوقَّع؛ فإنَّ دائرة الممكن تظل واسعة؛ فمهما فكّرنا فلن نبلغ كلّ ما نفكّر فيه؛ فعلى سبيل المثال: البحث عن العمل، لو لم يكن ممكنًا، ما كان البحث عنه؛ ولهذا فالبحث عن العمل ممكن، والحصول عليه ممكن، وعدم الحصول عليه ممكن أيضًا. ولكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان، وأنت تبحث عن فرصة عمل كما قُدِّمت إلى محمَّد أبو عزيزي بمدينة سيدي أبو زيد بتونس، الذي كان الأمر بالنّسبة إليه غير متوقَّع؛ وذلك في مقابل ما اتخذه من فعل (الاحتراق) الذي لم يكن هو الآخر متوقَّعا من قبل الذين قدّموا له الإهانات؛ ممّا ترتّب على الفعلين غير المتوقَّعين فعل ثالث غير متوقَّع، ألّا وهو الثورة، التي لم تطفئ نارها إلّا بسقوط نظام الرئيس التونسي زين العابدين بن علي من قمّة السُلّم السُّلطاني.

ولذا؛ فالعلاقة بين المتوقَّع وغير المتوقَّع هي علاقة قاعدة واستثناء؛ فحيثما كانت القاعدة كان الاستثناء متلازمًا معها، ومن هنا، يجب التفكير وفقًا للقاعدة دون الغفلة عن الاستثناء، ومن يغفل عنها فليس له إلّا المزيد من المفاجآت.

وبما أنَّ الارتقاء ممكنٌ؛ فلا مستحيل في دائرة الممكن، حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها، ومن هنا، وجب العمل على تذليل الصّعاب؛ كي تتيسّر الأمور ارتقاء؛ فالصّعاب إن لم تداهم ارتقاء، لا بدّ وأن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لم يحمد عقباه ينبغي تحدّي الصّعاب تهيؤًا، واستعدادًا، وتأهّبًا، وعملًا راقيًا تنجزه الإرادة.

ومع أنَّه لا صعب أمام مزيد من بذل الجهد ارتقاء، فإنَّه لا ارتقاء لخرق المستحيل؛ فمن المستحيل أن يكون الإنسان عالما بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما على الرَّغم من الصّعاب.

وعليه:

فالقاعدة: (تحدَّي الصِّعاب) أمَّا الاستثناء: (الاستسلام لها).

ولأنَّ الممكن ارتقاء يُمكّن من تحدّي الصّعاب، فَلِمَ لا يتهيأ الإنسان إليها قوَّة تدبّر؛ حتى يقهرها إرادة، ممّا يجعل التهيّؤ للعمل لا مكان فيه للتردّد في نفس المتهيئ لأدائه؛ ولذلك فمن يتوقّع أنَّ أداء العمل ميسَّر؛ فلا يستغرب إن واجهته صعاب تحول بينه وبين تنفيذه.

فالتهيّؤ في دائرة الممكن هو ارتقاء لأداء العمل الموجب؛ وكذلك هو ارتقاء لمواجهة ما يمكن أن يكون من فعل سالب؛ فكما تُرسم الخطط لتنفيذ العمل فهي تُرسم لمقاومة المعيقين له، ومتى ما بلغ الإنسان التهيؤ إرادة، بلغ القناعة المحفّزة والدافعة إلى تنفيذ العمل ومواجهة ما يعيقه من صعوبات؛ ولذلك فالذين يتهيّؤون إلى ارتكاب أعمال التطرُّف بإرادة في معظم الأحيان هم يُقْدِمُون على تنفيذها دون تردّد، والذين يقاومون أعمال المتطرفين بإرادة هم الآخرون يقدمون على مقاومتهم ومقاتلهم بكلّ قوَّة، أمَّا أولئك الموظّفون الذين تُصدر لهم أوامر تنفيذ التطرُّف، أو أوامر مقاومته فلن يكونوا فاعلين، بل ستكون أيديهم على الزِّناد مرتعشة ، وهنا تكمن العلّة.

إذن: فمن تهيّأ واستعدَّ لعمل وأقدم عليه ليس بالأمر الهين أن يتهيّأ لِما يُغيِّره عن الاستمرار فيه، إلّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، لا تُصحح إلّا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة، ومن هنا؛ فكلّما توافرت الأفكار والحُجج تجاه القضيَّة الخارجيَّة مثار الانتباه والاهتمام، كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلّما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عمليَّة التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

ولذا؛ فالتهيّؤ للقول يؤدّي إلى الاستعداد لأنْ يقال بإرادة، وكذلك التهيّؤ للعمل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب.

ومع أنَّ الممكن ارتقاء لا استحالة فيه، ولكن إن لم يعقب التهيؤ استعدادٌ فلا إمكانية؛ حيث لا إرادة؛ ولذلك فإنَّ غياب الإرادة يغيّب كلًّا من التهيؤ والاستعداد، ومن ثمَّ تقوى درجة الاستعداد المترتِّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما.

ومع أنَّه لا إمكانية للارتقاء بلا إرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، وحتى وإن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ الارتقاء قمّة.

فالتأهّب يؤجج في النّفس حرارة الاندفاع تجاه الهدف دون خوف مع إصرار على الإنجاز، ومن يتأهّب للشيء بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع في دائرة الممكن ارتقاء أن يُنفِّد ما يشاء، وكيفما يشاء، ومتى ما يشاء.

ولأنَّ لكلّ فعل ردّة فعل، إذن: فمن يتأهّب لأداء الفعل ارتقاء لا بدّ وأن يكون متأهّبا لما يترتّب عليه من ردّات فعل، وإلّا سيفاجأ بما هو مؤلم.

وحتى لا تحدث المفاجآت في كلّ مرّة؛ فأخذ الحيطة والحذر ضرورة لمن شاء أن يتدبّر أمره بلا عِلل، ولكن هذه ليست الغاية، بل الغاية أن تسود الحياة بين النّاس بلا مغالبة، ولا هيمنة، ولا حرمان، ولا تمدّد على حساب الآخرين، ولا اتكالية على الغير، ومن هنا، تصبح الغاية هي تجاوز الحلّ المتجاوز للإصلاح وإن كان إصلاحًا مساندًا.

ولذلك؛ فالغاية من بعد الحلّ هي بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ رفعة الشّأن، وعيش النّعيم، وهذه مع أنَّها غايات، فإنَّها ستظل في دائرة الممكن ارتقاء بين متوقَّع وغير متوقَّع، والعاملون عليها هم وحدهم يتهيؤون لها، ويستعدّون إليها، ويتأهبون لحسم الأمر، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات غاية.

ولأنَّ النّشوء في دائرة الممكن ارتقاء يمكّن من بلوغ الغايات؛ فالمزيد من التّأهب إليه يُسرِع بحركة إحداث النُّقلة مع تسارع امتداد الكون إلى النّهاية؛ ولهذا لن تستطيع تلك الأنظمة المعيقة للارتقاء أن تصمد أمام التسارع ارتقاء تجاه إحداث النقلة المأمولة، بل كلّ الأنظمة التي رَكِب أصحابها المصاعد إلى الأسطح، ولم يضعوا في حسبانهم أنَّه لا نزول إلّا من خلالها؛ فهم صَعدوها بلا سلالم، وبقوا هناك إلى أن أُسقِطَ بهم أرضًا.

ومن هنا، كان الفأر أكثر فطنة وذكاء من تلك القمم التي صعدت وبقيت هناك؛ فالفأر ذات مرّة سُئل:

لماذا أيّها الفأر عندما تشعر بخطر تبدأ اللعب بذيلك؟

فقال:

ألا يكون من الأفضل لي أن ألعب بذيلي بدلاً من أنْ ألعب برأسي؛ فأنا عندما ألعب بذيلي أفكر، ولكن عندما ألعب برأسي يُلعب بي.

وعليه:

فمن أجل ألا يتكرر اللعب بالرّؤوس، ينبغي أن يحيا النَّاس، ويموت الموت، الذي كتب عليهم بعلل الفقر، والمرض، والألم، ثمّ يُقضى عدالة على الهيمنة، والحرمان، والإقصاء، ويفسح المجال للحقوق أن تمارس، والواجبات أن تؤدّى، والمسؤوليات أن تُحمل، دون أن تكون الحاجات في حاجة للإشباع، ودون أن يكون من بعد العلم جهلا بذلك الصفر الذي من بعده أصبح الكون وجودًا متمدّدًا ومتسارعًا.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف 78 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

صدر له (149) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

المؤلّفات

1 . مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 . الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3. فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 . منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 . سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 . المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 . البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 . التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 . الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا،

2001م.

10 . نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 . خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 . منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 . خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 . خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 . البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 . البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 . البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 . البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 . مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 . المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت . دمشق، 2009م.

22 . موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2009م.

23 . ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

24 . مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

25 . خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

26 . قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

27 . أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

28 . آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

29 . نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

30 . إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

31. إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق. بيروت، 2010م.

32. شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق. بيروت، 2010م.

33. يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

34. داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

35. يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق. بيروت، 2010م.

36. أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق. بيروت، 2010م.

37. موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق. بيروت، 2010م.

38. عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق. بيروت، 2010م.

39. محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق. بيروت، 2010م.

40. صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 . التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 . ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

53 . المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

54 . الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 . الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 . سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 . خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقَّع وغير المتوقَّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 . من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 . من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60. من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 . من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 . من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 . من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 . من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 . من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 . من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 . من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71. الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 . تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 . ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 . أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 . الهويّة الوطنية بين متوقَّع وغير متوقَّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 . العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 . فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 . بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 . من معجزات الكون (خَلق . نشوء . ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 . مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 . آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 . إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111. محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116. من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118. منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . المعلومة الصائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الممكن (متوقَّع وغير متوقَّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 . مبادئ فكّ التأزّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 . الأهداف المهنيّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 . تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 . العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 .غرس الثّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 . مفاهيم الصّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 . الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 – كيفيّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيمية) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشرية (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 - مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب وإحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

139 _ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 _ التطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 _ البحث العلمي (المنهج والطريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 _ العدل ينسف الظلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

143 _ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

144 _ القوَّة تفكّ التأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

145 _ إحداث النُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

146 _ نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

147 _ نحو النظريَّة خلقًا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

148 _ نحو النظريَّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

149 _ نحو النظريَّة ارتقاء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشعب العام مفتشا عامّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينا عاما للتنمية البشرية بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 78 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (149) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

. أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.